القراءة للجميع
٢٠٠٨

وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

رواد الحركة الوطنية في مصر

صفية زغلول

تأليف:
أ.د/ محمود متولي

Mai.R

وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات



سلسلة رواد الحركة الوطنية المصرية
فى التاريخ الحديث
-٧-

صفية زغلول
أم المصريين

تقديم السفير أيمن القفاص
رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

تأليف : أ.د محمود متولى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر



الاهــــداء

إلى رمز الحب .. ومعنى النضال .. وفكر الإنسانية .. وفضائل الخلق إلى المرأة التى أخلصت لزوجها فى حياته ومماته وعاشت على مبادئه من أجل هذا الوطن .. لم تهاب ظالما .. ولم تنافق حاكماً .. ووقفت مع الشعب فى كل محنه وتبنت صدق الكلمة .. فكانت بحق تستحق لقب أم المصريين .

اليها سطوراً .. تحكى قصتها وتروى كفاحها وتؤكد لنا أن هذا الوطن الذى نعيش فوق ارضه .. لم يصل إلى ما وصل اليه إلا بفضل رجاله ونسائه الذين عملوا سويا .. وضحوا بكل شئ من أجل رفعته وحصوله على حريته .

فهرس الدراسة

تقديم

تاريخ الأمة هو المرآة التى يرى فيها الفرد ذاته، فتتضح له معالم هويته وهو مصدر إلهامه واعتزازه بنفسه وبوطنه وبتراثه ، وخير معين فى جلاء الحاضر واستشراف المستقبل ، وهو سلاح من أسلحة الصمود فى وجه الكوارث والنكسات.

ولاشك أن الوعى التاريخى بمسيرة نضالنا وملحمة كفاحنا من أجل الحصول على حريتنا واستقلالنا هو أهم مايجب أن تتعرف عليه أجيالنا الشابة كى يؤمنوا أن ما وصلنا إليه كان بالبذل والعطاء والتضحية ، حتى يبقى هذا الوطن - دوماً- حر الإرادة .. لايتحكم فيه دخيل ولايهيمن عليه متسلط .

لكل ذلك تقدم الهيئة العامة للاستعلامات مجموعة دراسات تاريخية علمية نتعرف من خلالها على رموز الوطن الذين قادوا حركة الكفاح الوطنى وقدموا أروع صور البطولة والفداء .

إن الحديث عن رواد الحركة الوطنية فى مصر إنما هو - فى حقيقة الأمر - تمجيد للشعب المصرى قبل رموزه .. فالشعب هو صانع التاريخ لأى أمة من الأمم وتلك حقيقة لاجدال فيها

آمل أن يكون هذا العمل رصيداً للتذكير بالماضى .. وبعثاً لثقافة تاريخية نفتقدها كثيراً فى وقت فيه أجيالنا الشابة فى أمس الحاجة إليها .

السفير/ أيمن القفاص
رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

تمهيد

لا يمكن أن ننكر دور المرأة المصرية فى الكفاح من أجل وطنها والتضحية فى سبيل حريته واستقلاله .. ودورها فى التنمية لا ينكر .. أما رسالتها فى التربية فهى أخص وظائفها .. ولكنها لظروف تاريخية لم تستطع أن تؤكد ذاتها ومن ثم خاضت معركة .. ليس فقط ضد التقاليد .. ولكن أيضا ضد القوانين التى كبلت حركتها .

والواقع أن المرأة طاقة بشرية ضخمة وخلاقة فى المجتمع الذى تعيش فيه ولا شك أن تعبئة قواها ومساهمتها الفعالة فى مختلف جوانب تنمية هذا المجتمع من شأنه أن يساعد على دفع عجلة التقدم خاصة فى العالم المعاصر الذى يواجه الكثير من الصعوبات والمشكلات ولقد اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ٣٠١٠ فى الدورة السابعة والعشرين ١٨ ديسمبر ١٩٧٢ بأن يكون عام ١٩٧٥ عاماً عالمياً للمرأة ، كما قررت الجمعية تكريس هذا العام لمضاعفة العمل على تعزيز المساواة استجابة للتوصية التى أصدرتها الأمم المتحدة بأن تنشئ الحكومات لجانا قومية لشئون المرأة ، وكذلك لجانا دولية للمرأة على المستويات الإقليمية بهدف دعم برامج النهوض بالمرأة فى مختلف الدول وكذلك بناء على توصية لجنة المرأة العربية بجامعة الدول العربية ، بأن تنشئ الحكومات العربية لجانا قومية للمرأة أو شعب اتصال لمتابعة تنفيذ توصيات لجنة المرأة العربية تكون أداة لربط التنظيمات فى الدول الأعضاء بأعمال اللجنة ونشاطها وتقتضى منا أمانة البحث العلمى القول أن المرأة المصرية سبقت غيرها من النساء منذ فجر التاريخ وكان لها مكانتها التى لم تحظ بها المرأة فى كثير من الحضارات القديمة وأنها وقفت مع الرجل فى كافة مراحله التاريخية فى الكفاح من أجل الوطن ولم تتقوقع إلا منذ قدوم الاحتلال العثمانى لمصر بعد فتح السلطان سليم الأول ١٥١٧م .

ويقتضى منا الوضع شرح مكانة المرأة المصرية فى عهود الفراعنة :

فى عصر الفراعنة حصلت المرأة المصرية على مكانة مرموقة وتساوت بالرجل فى القانون المصري القديم .. وفى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة ، كان لكل مصرى حق التزوج من أمرأة واحدة فقط والثابت فى الوثائق التاريخية أن المرأة

المصرية القديمة كانت تستطيع أن تتعاقد وأن تمتلك العقارات .. أى كان لها ذمة مالية منفردة ولا يظهر أنها كانت تحتاج إلى أذن من الزوج أو إلى اجازته فأهلية الأداء عندها كانت كاملة ومنذ عهد الأسرة الخامسة إلى عهد الأسرة العاشرة عاشت مصر فى ظل نظام اقطاعى فكانت حالة المرأة انعكاس لذلك حيث خضعت المرأة لسلطة رب الأسرة ، ومع ذلك لم تفقد حق التملك فى هذا العهد .

وفى عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة فى مصر الفرعونية ، أصبح لها حق الاشراف على الأسرة باعتبارها رب الاسرة وفى عهد الأسرة الخامسة والعشرين أصبح عقد الزواج عقداً دينياً لا يقبل الانفصام وحصلت المرأة فى الصعيد على حق المساواة التامة مع الرجل .

ورسوم المقابر التى خلفها المصريون القدماء منذعام ٣٥٠٠ق.م ، يتضح فيها سمو الحياة العائلية المصرية فى وقت كان معظم العالم يحيا فى غمار الهمجية تهيم شعوبه على وجوهها ويقتل بعضهم بعضاً .

وقد اتفق علماء التاريخ القديم على وجه العموم على القول بأن معظم الأمم القديمة أن لم يكن كلها فى مشارق الأرض ومغاربها ، كانت تضع المرأة أمام القانون فى وضع دون الرجل بكثير ، إلا فى مصر القديمة .. فالمرأة المصرية كانت أمام القانون متساوية مع الرجل وتتمتع بمثل حقوقه وتعامل مثل معاملته وكذلك فى الأسرة كانت مكانة الزوجة مثل مكانة الزوج كما كانت مكانة الأبنة كالأبن والأخت كالأخ .. ومن الجدير بالذكر أن الكرامة كانت للمرأة بحكم كونها أمرأة .. وكان حق وراثة الملك ينتقل بواسطة المرأة بحكم الأمومة والزوجية وبناء على هذا المبدأ تقلدت حتشبسوت عرش مصر لأن والدتها كانت من سلالة ملكية بخلاف أخويها اللذين كانت أمهما من محظيات الملك .

هذا بينما كانت المرأة فى الصين القديمة تباع للعمل أو تحجز لسداد الديون أو دمية يتسلى بها الرجال ، وفى اليابان القديمة كانت الفتاة ترتدى ملابس الحداد ليلة زفافها على أساس أنها طلقت الحرية ودخلت فى مرحلة العبودية ، وكان زوجها اذا سئم باعها ، واذا مات آلت ملكية زوجته إلى ابنه الأكبر الذى يستطيع بيعها بأى ثمن .

لقد كانت الزوجة فى التاريخ المصرى القديم شريكة حياة الرجل فى كل نواحى حياته الدنيوية والدينية وواضح من صور الزوجين على الآثار المصرية أنهما كانا متلازمين جنباً إلى جنب وفى حجم واحد ، حتى بالنسبة للملوك وزوجاتهم ، واذا كانت الملكة قد ظهرت احياناً أقل حجماً إلى جانب الملك ، فليس ذلك لأنها المرأة وهو الرجل ، وإنما كان ذلك إظهاراً للملك فى حجم يلقى الرعب فى القلوب بما يتفق مع وصفه ممثل الآله على الأرض ، والقائد الأعلى للجيوش وصاحب الأمر الأعلى فى البلاد .

والواقع أن قدماء المصريين هم أول من أعطوا المرأة حريتها ووصلوا فى ذلك إلى أعلى المراتب ، وقد سمح الملوك والأمراء فى التاريخ المصرى القديم لنسائهم بالظهور فى المعابد سافرات الوجوه ، كما كانت المرأة المصرية تشارك الرجل فى ميادين السباق ، وترافقه عندما يقصد صيد الطيور والأسماك فى القوارب النيلية .

وكان الرجل يدفع مهراً عند الزواج ويتعهد للزوجة بمبلغ معين يمنحها إياه كل عام لشراء ثيابها ، كما يتعهد بأن يدفع لها غرامة اذا تزوج عليها ضرة . ووصل الأمر أن الزوج كان ينسب إلى زوجته فيقال فلان زوج فلانة .. كما كان الأولاد فى بعض الأحيان ينسبون إلى المرأة .

بل أن الرجل فى التاريخ المصرى القديم كان لا يقترن بالمرأة إلا اذا تعهد بأن يكون لها أبداً ومن المأثور أنه كان يحيك ويغزل كالمرأة ، كما كانت المرأة تبيع وتشترى وتتاجر وتداين شأنها فى ذلك شأن الرجل .

وفى الأسرة الحادية والعشرين حكم على رجل بالجلد لأنه قام بسب زوجته ولو عاد إلى سبها تقرر أن يحرم من نصيبه فى المال الذى كسبه بالاشتراك معها .

وقد شغلت المرأة فى مصر القديمة مختلف الوظائف فمنهن من شغلن منصب رئيس الكهنة وهو أهم المناصب الدينية فى مصر ومنهن من شغلت منصب القاضى وكان تقدير الفراعنة للمرأة أنه لم يحرمها من منصب الملك حيث كانت

هناك الملكة حتب أم الملك خوفو ، والملكة خنت بنت منقرع واياح حتب ملكة طيبة ، وحتبشسوت أبنه آمون ، وتى زوجة امنحتب الثالث ونفرتيتى زوجة أخناتون (١) .

والأكثر من ذلك أن الفراعنة رفعوا المرأة فى تاريخهم إلى مرتبة الآلهة فى أساطيرهم وعبادتهم ومن أمثلة ذلك الأسطورة الخاصة بعبادة ايزيس التى أعتبرت رمزاً للوفاء والاخلاص حيث اعتبر المصريون فيضان النيل أتياً من دموعها حزنا على وفاة زوجها ، وهناك مجموعة من الآلهة المصرية القديمة تجسدت فى صور المرأة مثل الالاه نوت آلهة السماء ، وموت أم الشمس ، شخت آلهة المزارع ، تفتنوت آلهة الهواء وباسنت آلة المرح وحتحور آلهة الحب .

هذا التقديس والتبجيل للمرأة المصرية كان يقابله عبودية للمرأة فى الكثير من المجتمعات الصينية .. فالمرأة فى المفهوم الصينى القديم لا عقل لها وهى دائما سبب الكوارث فى المجتمع .. وكانت المرأة فى المجتمع اليونانى مجرد وعاء أو أداة لإنجاب الأطفال وحرمت المرأة فى المجتمع اليونانى من أى تعليم وكان من حق الأب أن يبيع بناته.

(١) الفرعون أمنحتب الرابع هو الذى أطلق عليه فيما بعد اسم اخناتون المفكر الأول والفيلسوف الأول والمثالى الأول ورائد الوحدانية فى مصر القديمة ، وزوجته نفرتيتى كانت أجمل جميلات عهدها وكانت سند لزوجها حتى آخر رمق فى حياته أما والده فهو الفرعون أمنحتب الثالث الذى يشبه عصره بعصر هارون الرشيد أيام الدولة العباسية وعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر وكانت زوجة الفرعون امنحتب الثالث هى الملكة "تى" التى تميزت بشخصيتها القوية الفذة وهى أم اخناتون الذى أمن منذ ايام شبابه الأولى بآله واحد هو آتون الذى رمز اليه بصورة قرص الشمس تشع منه أشعة تنتهى بأياد بشرية تمسك برمز الحياة المسماة عنخ فى اللغة المصرية القديمة ولم يجسم معبوده الجديد فى هيئة بشرية ولم يقم له التماثيل ولم يجعل له زوجاً أو ولداً / كما ربط بينه وبين الصدق والعدل والحق عند قدماء المصريين وهى المعبودة.

وقد وصف اخناتون زوجته نفرتيتى بأنها "مليحة المحيا ، بهيجة بتاجها ذى الريشتين تلك التى اذا ما أصغى اليها الانسان طرب ، سيدة الرشاقة ذات الحب العظيم تلك التى يسر رب الأرض صنعها .." كما وصفت نفرتيتى فى مناسبات أخرى بأنها الجديرة بالمرح ، ذات الحسن ، حلو الحب ، جميلة الوجه ، زائدة الجمال التى يحبها الملك ، سيدة السعادة ، سيدة جميع النساء " ، أما أسمها فهو ينطق حسب كتابته بالخط الهيروغليفى " نفرت ايتى" أى الجميلة مقبلة ، كما سميت فى السنة السادسة من حكم زوجها "نفر نفرو آتون " أى الجميلة جمال آمون ، كذلك منح نفرتيتى القابا عديدة منها الزوجة الملكية العظمى ، وسيدة مصر العليا والسفلى سيدة الارضين وقد خلف الزمن لنا بعض رؤوس تماثيل لنفرتيتى تعد من أروع ما يتركه العصر الفرعونى ، ابرز فيها الفنان معالم الجمال بشكل قوى أخاذ ، فالتقاطيع متناسقة معبرة ، والعيون بيضاوية ساحرة ، والأنف صغير دقيق ، والشفاه ممتلئة ذات ليونة وحيوية ، والواقع أن الانسان ليقف مبهوراً أمام ذلك الاقتران والتكامل مابين جمال صاحبة تلك التماثيل وأصالة من نحتوها . ولكن يشاء القدر أن يحرمهما من انجاب من يرث العرش فرزقت نفرتيتى بست بنات .

والواقع أن التاريخ قلما مرت به حياة ملكة كحياة نفرتيتى التى تمتعت بحياة زوجية متميزة ونعمت بجو روحى رفيع ولكنها فى نفس الوقت عاصرت صراعات رهيبة ، وتعرضت لظروف تعيسة . كذلك لم يشهد التاريخ المصرى مأساة كمأساة اخناتون ونفرتيتى أو نهاية غامضة كنهايتهما .. ومع ذلك فلا تزال سيرة أخناتون حدوته تتناولها الاقلام ولا تزال نفرتيتى باقية سواء فى تماثيلها وصورها الرائعة أو فى سيرتها الفريدة .

والمرأة فى التاريخ الرومانى كانت باسم القانون ناقصة العقل لا أهلية لها فى امضاء العقد أو عمل الوصية أو أداء الشهادة أو شغل الوظيفة حيث ابرز قانون الألواح الأثنى عشر فى روما أن الأنوثة سبب لانعدام الأهلية .

ومن المأساة فى الحضارة اليونانية والرومانية أنه عند زواجها ــ أى المرأة ــ أشبه بفرسة الرجل أو سلاحه له أن يؤجرها وله أن يقرضها لمن يشاء .

والمأثور عن افلاطون أنه دعا إلى شيوع النساء والغاء نظام الاسرة .. كما كان أرسطو يرى أن المرأة أقل ذكاء من الرجل وأن الطبيعة لم تزود النساء بأى استعداد عقلى يعتد به وأنه لذلك يجب أن تقتصر تربيتهن على شئون تدبير المنزل والحضانة والأمومة .

ومن الغريب أن بعض الملل فى الماضى قد ذهبت إلى أن المرأة رجس من عمل الشيطان وأنها من خلق اله الشر ، وكانت من نتيجة هذه المعتقدات أن أنتشرت عادة التخلص من البنات بقتلهن أو وأدهن عقب ولادتهن ، كما كان سائداً لدى العرب فى الجاهلية ولما جاء الإسلام عارض وأد البنات .. ولقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

" والله كنا فى الجاهلية لا نعد النساء شيئا حتى أنزل الله فيهن بما أنزل وقسم لهن ما قسم ، وقد قيل أن عادة وأد البنات كان مردها خوف العرب من البنات والنساء بسبب شرور السبى نتيجة للحروب والغارات أو بسبب خوفهم من عدم وجود الأكفاء للزواج أو بسبب الفقر .. كما حظر الإسلام بعض عادات العرب السيئة فى الزواج .

والواقع أن الإسلام اهتم بالمرأة وإنسانيتها وتحريرها ، وكان لما جاء به أثر كبير وواضح فى نهضة المرأة العربية وفى انتشالها من وهن الأنظمة الفاسدة .

وإذا انتقلنا إلى التاريخ الحديث وجدنا ماضى المرأة المصرية يرتبط بمظاهر مبينة تشكل فى مجموعها صورة للحركة النسائية الوطنية التى قادت فيما بعد إلى التطور الخاص بحاضر المرأة فى مصر .. ومن أبرز هذه المظاهر الدعوة إلى تعليم البنات ، وقضية السفور والتحرر ، وكذلك بداية تحرر المرأة فى مجال النضال والكفاح السياسى والوطنى ثم بداية تحركها المنظم فى المطالبة بحقوقها حيث لوحظ على وجه الخصوص أن صوت المرأة المصرية بدأ يظهر ويرتفع فى شكل المطالب النسائية التى سجلها التاريخ الحديث للمرأة المصرية فى عام١٩٢٤

أما عن الدعوة إلى تعليم البنات ، فالواقع أن حركة تعليم المرأة ترجع فى العالم غير الإسلامى على وجه العموم فى اوائل القرن التاسع عشر ، أما الدعوة إلى تعليم المرأة المسلمة فقد بدأت منذ الدعوة المحمدية حيث نادى الإسلام بتعليم المرأة والرجل على حد سواء وأن ذلك فريضة على كل مسلم ومسلمة وإذا كان الإسلام قد سبق كل المفكرين والداعين لتعليم المرأة بقصد تأهيلهن لبيوت الأزواج فإن الإسلام دعا إلى جانب ذلك إلى تزويدهم بمبادئ الذوق والاحتشام .

ويمكن القول بأن النهضة النسائية المصرية قد بدأت فى عصر الخديوى إسماعيل حيث أنشئت المدارس لتعليم البنات ، وبدأت المرأة المصرية آنذاك تسهم بنصيبها فى النهضة الأدبية والاجتماعية .. وكانت عائشة عصمت تيمور المعروفة باسم عائشة التيمورية طليعة هذه النهضة بما كتبت من مقالات وقصص أدبية رائعة تمجد دور المرأة وضرورة مشاركتها لبناء الوطن جنباً إلى جنب مع الرجل .

ولكن لا يجب أن ننسى هنا أن أول من وضع بذور الدعوة لأهمية دور المرأة وضرورة تثقيفها وتربيتها على أسس سليمة كان هو المفكر المصرى الكبير رفاعة الطهطاوى (الذى عاش فى الفترة من ١٨٠١ حتى ١٨٧٣) والذى دعا الى النهضة النسائية والى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين فهو بحق أول من دعا إلى تحرير المرأة من الجهل وكتبت كتابها الشهير فى التربية المعنون باسم " المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين " .

لقد نادى رفاعة الطهطاوى ببذل الجهد لتعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج وقال بأن تعليم البنت القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك من شأنه ان يزيدها أدباً وعقلاً ويجعلها أهل للمعرفة وأصلح لمشاركة الرجل فى الكلام والرأى فتعظم فى قلبه كما يعظم فى مقامها عنده .. كما أن تعليم المرأة يمكنها عند الاقتضاء أن تقوم من الأعمال بما يقوم به الرجل على قدر قوتها وطاقتها ومن شأن ذلك تجنب البطالة عند النساء إذ أن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهم بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة .

وتبع الطهطاوى فى ذلك الاتجاه ، الأديب الشعبى المبدع عبد الله النديم الذى نادى أيضا بتعليم المرأة واعتبر المرأة الجاهلة من أسباب خراب البيوت وفساد الخلق وضياع حقوق الإنسان لأن تعليم المرأة يمكنها من تدبير أموالها ومصالحها

بنفسها وتجنيبها العادات القبيحة والتمسك بالخرافات ، كما أن تعليمها يمكنها من أن تكون أما تستطيع أن تربى وأن تهذب وأن ترفع من شأن أولادها من بنين وبنات .. هذا فضلاً عما أبرزه "النديم" من أن جهل المرأة وعدم تعليمها هو السبب فى أنماط السلوك الاجتماعى الخاطئ والذى يعتبر مخالفة للدين (١) .

ولما جاء قاسم أمين جدد الدعوة إلى نهضة المرأة ووسع نطاقها وقد ركز فى مناداته بتحرير المرأة على ضرورة تعليمها وتربيتها وكان يرى أن إصلاح أموال المصريين منوط بتهيئة الوسط الصالح للبيوت والعائلات فى مصر وأن ذلك لن يتحقق إلا إذا تربت المرأة وشاركت الرجل أفكاره وآماله وآلامه .

وأكد قاسم أمين أن بُقاء النساء فى الجهل حرمان للأمة من الانتفاع بأعمال نصف سكان البلاد .

ويعتبر المفكر الكبير سلامة موسى من أبرز محررى المرأة والمناضلين من اجل تحقيق هذا الهدف .. وإذا كان قاسم أمين قد صاغ أفكاره فى كتابيه " تحرير المرأة " و"المرأة " وإذا كان رفاعة الطهطاوى من قبله قد كتب العديد من المقالات ثم صاغ أرائه فى كتابه الأشهر "تخليص الأبريز" فإن سلامة موسى كتب العديد منم المقالات صاغها من أجل تربية المرأة ولعل أهم مؤلفاته كتابه الذى أصدره ١٩٥٦ بعنوان " المرأة ليست لعبة الرجل " وهو تجميع للكثير من مقالاته فى الصحف والدوريات التى كان ينشر فيها .. وكذلك كتابه " منه الحب والحياة" على نفس النمط وقد ظهر فى بيروت عام ١٩٦٢ .

وكان سلامة موسى يدعو الى مناهضة الانفصال بين الرجل والمرأة فى المجتمع وينادى بالاختلاط بين الجنسين على أساس أن هذا الاختلاط هو طريق الأمة للإحساس بالتقدم .

ودافع سلامة موسى عن المساواة بين المرأة والرجل ودعاها الى إشراك المرأة فى الإنتاج بحيث تعمل فى المصانع والمتاجر والمكاتب وقال أنه لا يكفى فى الواقع أن تنص القوانين على تساوى الجنسين فى الحقوق والواجبات مادامت التجمعات نفسها لا تزال ترفض المساواة .

---

(١) يبين ذلك ما أبرزه النديم من ركوب نحو الخمسين من النساء على عربة "كارو" فوق بعضهن البعض ، كأنهن طرود كهنة أو زكايب بن والخلائق يتفرجون عليهن فى شوارع البلد .. وكذلك ما تقوم به بعض النسوة من الجلوس فوق المقابر يوم الخميس وفى الأعياد والمواسم وأيضاً الدلالة والندب خلف الميت وصبغ الوجه بالنيلة أو الطين .

كذلك لا يجب أن ننسى دور مصطفى لطفى المنفلوطى الأديب المعروف والذى ربط بين تعليم المرأة وقدرتها أن تنال حقها من الرجل .

المرأة المصرية قبل الكفاح الوطنى وبعده :

ظلت المرأة المصرية أجيالاً طوالاً بمعزل عن الدنيا ، قعيدة البيت مهيضة الجناح ، مسلوبة الحق لا تنفذ الى مسامعها صرخة الحياة إلا إذا أنفذت الى حجرات بيتها الموصد أشعة الشمس .

وكان الرجل يسومها الخوف والهوان ، ويضرب عليها ذل الحجاب ، ويحول بينها وبين التطلع الى حياة أرحب وأسمى ، فألفت العيش فى عقر دارها واعتادت خنق مواهبها ، وتوجهت بكل قواها كالحيوان الأليف الى حراسة الرجل ، واقناع الرجل وكانت أهنأ ما تكون بنصيبها ، لا تشكو ولا تتململ ولا يخالجها أيسر ظن بأن فى الكون العريض حياة غير حياتها وفى نسمات الطبيعة جمالاً غير جمال دارها وفى العقل البشرى الحر كنوز غير حليها اللامعة وأثوابها الزاهية وطعامها الفاخر وحظها الموفور من الراحة والأمن والهدوء .

وكانت قد بلغت من العبودية الأقصى ، ترى الظلمة نوراً والجهل نعمة ، والطاعة العمياء فرضاً ، والحجب والسجن دليلاً بالغاً على ما يكنه لها الرجل من عظيم التقدير والحب .

وكانت ثورة ١٩١٩ هى بداية خيوط الأمل .. عندما زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت اثقالها ونفضت عنها أصوات الألوف ممن كانوا يعيشون فى بطنها عيشة أنصاف البشر الغابرين فى ظلمات المغاور والكهوف .

حيث جاء السيل دافقا اكتسح فى طرقه كل شئ واقتلع جذور الماضى النخرة وقوضت بنيان وأطلقت الجماهير نساء ورجالاً فى عرض القضاء يطاردهم الاعصار الى حيث قدس الوطنيين الأعلى .

خرجت المرأة فى ١٦ مارس تخطب فى الجماهير لا تخشى شيئاً .. لأنها أمنت بمصر .. فكانت المعجزة .. والمرأة اذا آمنت وحل الإيمان فى قلبها ففى وسعها أن تقول للجبل أنتقل فينتقل .

وسخطت النساء على التقاليد البالية .. تعلم أولادها فضيلة الكبرياء .. وتلقى فى روعهم أن مصر خليقة بأن تتألم كى تفرح وأن تموت كى تحيا .

ولعل موكب التاريخ لن ينسى هدى شعراوى والذين وقفوا معها من النساء والدور الذى لعبته من أجل حرية المرأة .. وأيضاً لن ينسى نضال شابات مصر فى المحافل الدولية دفاعاً عن حرية المصريين والمصريات وغضبهن على المستعمر .. وقيامهن بدور خلده التاريخ ولم تهب إحداهن رصاص المحتل الغاشم .. مما جعل الجميع يحن رأسه احتراماً وإجلالاً لهذه المرأة التى لم تهب الموت ولم تبخل على وطنها بأى تضحية .

ولعل قصة كفاح صفية زغلول جنبا الى جنب هى صورة منصفة لدور المرأة المصرية وما قامت به من أجل ذلك الكيان الذى نسعى جميعا أن نراه منارة للهداية ورمزاً للمبادئ الإنسانية ينعم بالحرية ويسهم فى دعم مسيرة الحضارة البشرية .

الفصل الأول
من هى صفية زغلول ..أم المصريين ..النشأة والتربية والتكوين السياسى ورحلة الزواج من سعد باشا

هى صفية مصطفى فهمى ابنة رئيس الوزراء المصرى الأسبق مصطفى فهمى وهى زوجة الزعيم الشعبى الكبير سعد زغلول وقد نسب أسمها اليه فعرفت باسم صفية زغلول .

كانت أمرأة من طراز نادر ، فقد كان فيها من الجمال قدر ما فيها من الصلابة وكان بها من الرقة قدر ما فيها من العزيمة وكان فيها من الذكاء قدر ما فيها من السماحة كشفت عن قدرة متفوقة فى مجال معالجة مشاكل الوطن جنبا الى جنب مع زوجها كانت على الدوام صاحبة قامة ممشوقة ورأس مرفوعة فى اعتداد وثقة بالنفس .

رغم أنها تتشابه مع هدى شعراوى فى أن والد كل منهما أيضا كان من عملاء الانجليز ومن المؤيدين للاحتلال البريطانى لمصر .. فإن كلا منهما أيضاً كانتا قد خرجتا من عباءة أبيهما واتخذت طريقاً وطنياً مسحت من خلاله التاريخ الأسود للوالد .. فمحمد سلطان والد هدى شعراوى كان من الذين خانوا الثورة العرابية وانضم الى الخديوى توفيق ورأى فى منصب قائمقام الخديوى ما كان يطمح اليه .. إلا أن الانجليز خدعوه وسرعان ما تخلو عنه .. تماما كمصطفى فهمى والد صفية زغلول الذى كان من المعروف عنه أنه صديق الانجليز الوفى وعندما تولى رئاسة الوزارة لأول مرة فى مايو ١٨٩١ اعتبر الانجليز أنهم قد أخضعوا مصر سياسياً بعد أن أخضعوها عسكريا قبل ذلك بتسع سنوات ثم أقالوه وبعد ذلك أعادوه ١٨٩٢ ثم أقالوه وبعد ذلك اتو به ١٨٩٥ فى وزارة متصلة استمرت حتى عام ١٩٠٨ أى أن وزارته الثالثة امتدت ثلاثة عشر عاماً دون تغيير وهى الوزارة التى وقعت خلالها احداث جسام بمصر .. فمن حادثة دنشواى الى الأزمة الاقتصادية الى اضطهاد العناصر الوطنية .. مروراً بتوقيع الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ١٩٠٤ .

وتعتبر وزارة مصطفى فهمى الثالثة هى أطول الوزارات المصرية عمراً منذ أن عرفت مصر نظام النظارة بدءا من ١٨٧٨ فى أواخر عهد إسماعيل خديوى

مصر .. أى أن مصطفى فهمى والد صفية زغلول لم تكن له أى علاقة بالوطنية من قريب أو بعيد .. بل على العكس كان بمثابة الحليف الدائم للاستعمار البريطانى فى مصر ..

وعلى العكس وباستجابة الله كانت أبنته تتفجر وطنية وتتبع خطوات مصطفى كامل ومحمد فريد وتآسى لمأساة دنشواى وتشمئز من تصرفات جنود الاحتلال ولكنها لم تستطع أن تعبر عن ذلك طالما هى فى بيت أبيها .

وكانت صفية زغلول على موعد مع القدر .. وقد ساعدتها تربيتها فى التصميم على الاختيار بين وطنها وبين والدها .. ولكن من يتخيل أن ترتبط تلك الفتاة الصغيرة بزعيم مصر خالد الذكر سعد زغلول .

فى ذلك الوقت كان سعد زغلول يتردد على أشهر المنتديات الأدبية فى مصر والذى كانت تقوده الأميرة نازلى فاضل والتى وجدت فى سعد باشا أفضل وكيل لها فى كل قضاياها وكانت للأميرة نازلى الأثر الأكبر فى حياة سعد زغلول العامة والخاصة .. ونازلى فاضل هى أبنه الأمير مصطفى فاضل باشا وهو أخ للخديوى اسماعيل .

وقد تربت فى أوروبا وتزوجت بخليل باشا شقيق على شريف باشا سفير الدولة العثمانية فى باريس وعاشت معه عدة سنوات فى فرنسا .. حياة أوروبية متكاملة ، ولما توفى عادت الى مصر وبقيت مدة بلا زواج .. وكثيرا ما كانت تحى فى دارها ليالى موسيقية وكانت من أنصار الانجليز على أساس أنهم أصحاب رسالة حضارية .. ووقفت ضد مصطفى كامل عندما ظهر فى سماء الحركة الوطنية وكانت تهاجم الشبيبة المصرية على صفحات الجرائد الأوروبية ، ثم رأت أن تجعل من بيتها صالوناً فكرياً يضم ذوى الآراء المعتدلة من المصريين .. وانضم اليها فى هذا الصالون سعد باشا وكذلك الشيخ محمد عبده وكان يتردد على صالونها اللورد كرومر ليحضر بعض الأمسيات ويقال أن سعد زغلول تلاقى لأول مرة باللورد كرومر فى صالون الأميرة نازلى .

وكان للصالون حلقات ثلاث لملتقى راغبى العلم والمعرفة والتفقه فى شئون الدين فكان هناك ثلاث جلسات أسبوعية إحداهم حلقة القرآن وحلقة الحديث .. ثم حلقة الأدب وأخيرا حلقة المعارف الانسانية .. وكانت خلاصة هذه الحلقات والندوات المفتوحة تعريفات واضحة ومحددة لأصول الفقه والدين وكان يقودها

الشيخ محمد عبده وكانت تترك العنان لكل الأفكار أن تتصارع ومن ضمن من كانوا يترددون على هذا الصالون قاسم أمين .

وقد قدمت الأميرة نازلى لسعد زغلول فرصة اللقاء باللورد كرومر للمرة الأولى ولم تقصر الأميرة فى عبارات الإطراء التى ذكرتها عن سعد وحيث كان سعد محاميا للأميرة وأصبح يتقابل معها بشكل يومى تقريباً بحكم هذه الوكالة .

وكان سعد يعرف أن لرئيس مجلس النظار ابنة صغيرة تدعى صفية طيبة القلب رقيقة الوجدان تعارض سياسة أبيها فى صمت .. عزوفة عن الزواج بالطبقة التركية .. كلها مشاعر وطنية صادقة نحو مصر وشعبها .

تقدم سعد الى والدها رئيس النظار وبدأت مراسيم الارتباط وتم زواج سعد من صفية فى ٦ فبراير عام ١٨٩٦م (١) .

كانت صفية تصر على التمسك بالمشاعر الوطنية المصرية دون إبداء العداء الصريح للانجليز .. وكانت ترفض الاعتماد على فرنسا فى محاربة الاحتلال الانجليزى لمصر لأن فرنسا –من وجهة نظرها –كانت دائما تتردد فى السير الى نهاية الشوط ولمجرد أن يلوح لها البريطانيون ببعض المكاسب تنسى المبادئ التى كانت تنادى بها والمثل التى كانت تدافع عنها وتسعى وراء مصلحتها فقط .

كما كانت دوما تثير أمام زوجها اخطاء الثورة العرابية .. وقد تولى سعد زغلول فى ١٩٠٦ نظارة المعارف يعود الفضل فى ذلك الى صفية زغلول التى طلبت من والدها أن يعين زوجها فى وظيفة مرموقة بعد عشر سنوات من زواجها به ، ولما وجد مصطفى فهمى أن اللورد كرومر لا يمانع فى هذا التعيين قام فوراً بتلبية رغبة ابنته والتى كانت تعلم أن شخصية سعد زغلول فى الوزارة لن تكون صورة طبق الأصل للوزراء التقليدين الذين ينفذون آراء واتجاهات وتوصيات

---

(١) شكل مصطفى فهمى أولى وزارته فى ١٤ فبراير ١٨٩١ وثانى وزارته فى ١٧ يناير ١٨٩٢ وكان عدد وزراء كل من الوزارتين لا يزيد عن ٦ وزراء ، ثم شكل وزارته الثالثة من ١٢ نوفمبر ١٨٩٥ حتى ١٢ نوفمبر ١٩٠٨ وهى أطول الوزارات عمراً فى تاريخ مصر كلها .

وكان أول عهد مصطفى فهمى بالوزارة توليه نظارة الخارجية فى وزارة مصطفى رياض باشا الثالثة فى ٧ سبتمبر ١٨٨٨ كما تولى نفس المنصب فى وزارة محمود سامى البارودى بل وأضيفت اليه نظارة الحقانية ، ثم فى عهد وزارة شريف باشا تولى نظارة الداخلية ثم أصبح ناظر المالية فى وزارة نوبار الثانية ١٨٨٤ ثم أضيفت اليه نظارة الداخلية ولم يلبث أن تولى رياسة النظارة فى ١٨٩١ للمرة الأولى .

وكان فى الأصل ضابطاً خدم بالبحرية المصرية وترقى فى وظائفها حتى عين ناظراً للمدرسة الحربية كما عين محافظاً للاسكندرية فى مرحلة من تاريخ حياته وقد ألف فى حياته كتابا عن " تعانق الأخبارعن دول البحار " والواقع أنه يتمتع بخلق رفيع ولكن عيبه الوحيد الذى دمر سمعته هو تأييده للاحتلال البريطانى لمصر .

المستشارين الانجليز .. وجاءت الفرصة عندما تخلى على فخرى باشا عن نظارة المعارف فعين بدلاً منه وقد قال عنه اللورد كرومر فى تقريره السنوى :

" سعد باشا زغلول من نابغى أعضاء محكمة الاستئناف الأهلية .. كما أنه أحد الأصدقاء الذين احترمهم وهو كناظر للمعارف أمامه مستقبل عظيم فهو صادق .. عظيم .. كفء ولديه قدرة على تحمل الطعن والذم من ابناء وطنه" .

والواقع أن كلا من اللورد كرومر ومصطفى فهمى كانا حريصين على تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف كنوع من الترضية للمصريين والتقرب منهم على أثر حادثة دنشواى وما تركته من اثر سيئ فى نفوس المصريين تجاه الوجود البريطانى فى مصر .

لا ينكر أحد أن لصفية زغلول دور فى تولى سعد زغلول نفسه عدة مناصب حيث ظل فى نظارة المعارف من ١٩٠٦/١٠/٢٨ حتى ٢٣ فبراير ١٩١٠ وكان قد أثبت أنه جدير بالمنصب وعند اعفاء مصطفى فهمى من رئاسة النظارة ، ظل سعد وزيراً فى وزارة بطرس باشا غالى التى أعقبتها، ثم بعد اغتيال بطرس غالى فى ٢٠ فبراير ١٩١٠ نجد سعد زغلول وزيراً فى الوزارة الجديدة أيضاً وهنا أصبح ناظراً للحقانية بدءا من ٢٣ فبراير ١٩١٠ وظل بها حتى ٣١ مارس ١٩١٢ حيث تشكلت وزارة جديدة فى أوائل ابريل ١٩١٢ وعين حسين رشدى ناظراً للحقانية بدلا من سعد زغلول .

وتفرح زوجته صفية خلال توليه الوزارة أن نعم على سعد برتبة الميراميدان الرفيعة فى ١٢ نوفمبر من ١٩٠٦ ثم بالنيشان المجيد فى ١٨ يناير ١٩٠٨ .

كما فرحت بتحول سعد زغلول الى المعارضة للسياسة الانجليزية بعد اقالته من منصبه الوزارى كوزير للحقانية تلك المعارضة التى بدأت تكبر وتنمو بعد انتخاب زوجها وكيلاً للجمعية التشريعية التى تم انشاؤها عام ١٩١٣ لتحل محل الجمعية العمومية ومجلس شورى النواب .

ووقفت مع زوجها تؤيده فى موقفه من كتابى قاسم أمين " تحرير المرأة " الصادر ١٨٩٩ و"المرأة الجديدة " ١٩٠٠ والذى طالب فيهما بضرورة تعليم المرأة المصرية ورفع الحجاب عنها مما كان يعنى إقبال مصر على مرحلة من التحول الاجتماعى والثقافى لم تشهده من قبل وكان سعد زغلول يشكو لصفية موقف أخيه احمد فتحى زغلول وهو الشقيق الأصغر لسعد .. ولكن صفية كانت تهون

عليه الموقف وتفسره أنه غيرة من ناحية وأنه طموح لفتحى زغلول من ناحية أخرى يفوق قدراته (١) .

لم يحاول سعد أن يتنكر لصهره مصطفى فهمى أو يسئ اليه أو حتى يناقشه فى موقفه الموالى للانجليز لعل السبب فى ذلك حبه واحترامه لزوجته صفية .. وقد انتقل سعد وصفية للعيش فترة من حياتهما فى سراى مصطفى فهمى ثم اتخذا مسكنا مستقلاً لهما .

وكانت صفية فى كثير من الأحيان تحضر مجالس سعد مع زملائه والوطنيين من المصريين الذين كانوا يترددون عليه ويشكون من سوء الأوضاع وسيطرة الانجليز المطلقة على مصر والمصريين .

كانت صفية زغلول نعم العضد والشريك لسعد زغلول فى حياته وكانت مثال للمرأة المصرية فى مشاركتها زوجها فى السراء والضراء والوفاء له فى حياته وبعد مماته .

ومن الجدير بالذكر أن صفية زغلول تزوجت من سعد اثناء وجوده فى فرنسا فى باريس —لدراسة الحقوق فى عام ١٨٩٦ ، وأقيم لها حفلتان الأولى فى مصر والثانية فى باريس .

وقد شاركت صفية زغلول زوجها سعد فى وضع مفردات برنامجه الانتخابى للجمعية التشريعية .. ومن ثم جاء هذا البرنامج ليبرالياً تضمن ضزورة اصلاح القضاء واصلاح التعليم وتوسيع نطاقه حتى يعم جميع طبقات الأمة وحتى يتيسر لأبناء الفقراء أن ينبغوا كأبناء الأغنياء .

كما تضمن البرنامج إعطاء الصحافة حريتها اللازمة لنجاحها وارتقائها فى خدمة الأمة مؤكداً ضرورة التوازن بين حرية الصحافة من جهة وبين صيانة

---

(١) احمد فتحى زغلول كان من رجال القانون والقضاء ويعتبره الكثيرون من رواد حركة الترجمة فى مصر بجانب اهتماماته السياسية والتعليمية والصحفية وقد ولد ١٨٦٣ بقرية أبيان أيضاً وهو الشقيق الأصغر لسعد زغلول وقد شارك فى الثورة العرابية وكان من خطبائها وعندما فشلت الثورة واحتل الانجليز مصر رفت من المدرسة بقرار من نظارة المعارف فقام بتغيير اسمه والتحق بمدرسة الألسن عام ١٨٨٣ وفى تلك السنة ايضا سافر الى أوروبا لدراسة القانون وعاد منها ١٨٨٧ بعد حصوله على الليسانس حيث عين فى القضاء وتدرج فى مناصبه حتى أصبح رئيسا لمحكمة مصر وربطت بين فتحى زغلول علاقة قوية باللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ، وقد شارك فتحى زغلول كقاض ضمن قضاة محكمة دنشواى ١٩٠٦ وكان هو الذى صاغ حيثيات الحكم مما جعل لهذه الحادثة المؤلمة اثرها القاتم على تاريخه وسيرته وأعماله بحيث إذا ذكر اسمه أقترن بما ارتكبه فى دنشواى .
لم تكن تربطه بسعد علاقة قوية وذلك يرجع الى عوامل الغيرة والتنافس ، كما أن فتحى كان يرى أن أخاه سعد هو السبب فى الحيلولة دون ترقيته الى الوزارة خاصة وأنه كان يعتقد أنه يتمتع بمواهب وقدرات تفوق سعد .

النظام العام من جهة أخرى .. وكانت صفية تقول له دائماً .. المنظومة القضائية التى ترسى العدل والمنظومة التعليمية التى تبنى المعرفة وحرية الصحافة كمدرسة للرأى العام هما ثلاثية مقدسة يجب أن يتمسك بهم أى زعيم يريد أن يخلده التاريخ ويحترمه الوطن .

وكان من أثر هذا البرنامج أن فاز سعد فوزاً ساحقاً فى ترشيحه .. وكان تشجيع صفية له للترشيح لوكالة الجمعية التشريعية سببا فى فوزه .

وكم فرحت صفية عندما علمت من زوجها أول خطاب ارتجله فى الجمعية التشريعية حيث قال :

"اذا كانت الحكومة تريد أن تكون الجمعية التشريعية مكتب تسجيل لقوانينها ، فأنا بصفتى مصرى محب لبلادى أفضل ألا يكون لهذه الجمعية أثر فى الوجود . نعم أن حق الجمعية فى التشريع حق ضعيف جداً ولهذا نطلب منكم ياحضرات النظار ألا تزودوه بقوتكم ضعفاً على ضعف .. ولو كنتم مسئولين أمامنا كما تسأل الحكومات فى أوروبا أمام برلماناتها لسألناكم عن أعمالكم ولكننا قوم ضعاف لم يقسم لنا الحظ كما قسم للأقوياء فكل ما نستطيع أن نقوم به أمامكم هو أن نسألكم لا أن نحاسبكم وعلى أية حال فكل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها " .

وهكذا أدركت صفية هانم زغلول أن زوجها قد أصبح زعيماً للمعارضة وأن هناك دوراً فى التاريخ محجوز من أجل سعد .. فإزدادت ثقة به والتصاقاً لجانبه تشجعه على عدم الخوف وعلى الانحياز لمجتمعنا الذى يأمل فيه الكثير وكانت تقول لمن حولها :

"أن سر عظمة سعد وزعامته هو أنه نبت الشعب المصرى ولد فيهم وعاش بينهم وعبر عن أحلامهم وآلامهم وآمالهم .. لهذا ارتبط به الشعب المصرى إرتباطاً عظيماً لدرجة أنهم أطلقوا اسمه على البلح حتى يتغنوا به .. وبالفعل كانت صادقة فى كلماتها .. فكما أثبتت الأحداث فيما بعد ان فرح مصر وحزنها كان معقوداً على فرح سعد وحزنه .

صورة من الحياة الخاصة
لصفية زغلول

روت صفية الصغيرة ذات السبعة عشر ربيعاً ان سعد زغلول تزوجها وهو فى سن الـ ٣٥ ... وانها كانت تعتبره إلاهها الصغير ... وانه عندما خطبها قال لها انه لايحب أن تضع زوجته طلاء على وجهها ، ولم تملك إلا الخضوع لإرادته ، فلم تضع بودرة او مساحيق فى ليلة زفافها .. وكانت العروس الوحيدة فى كل مصر التى لم تتزين يوم فرحها ، وبقيت كذلك لاتضع على وجهها ذرة واحدة من البودرة الى أخر يوم فى حياتها .

وقالت صفية ان أمها فى ليلة زفافها قالت لها أن العريس سوف يصحبها فى " عربية حانطور " من بيت أبيها الى بيته فى حى الظاهر –ذلك الحى الذى كان يسكنه فى ذلك الوقت معظم الوجهاء والكبراء فى مصر –وعندما تقف العربة امام بيت العريس سينزل العريس ويقول لها تفضلى ، فتمتنع عن النزول فيقول لها للمرة الثانية تفضلى فتمتنع ثم يقول لها للمرة الثالثة تفضلى ، وعندئذ تنزل من العربة وتتبع العريس الى داره ... وأفهمتها امها ان تلك هى التقاليد التى تتبع فى العائلات الكبيرة الارستقراطية .

واطاعت العروس تعليمات امها . فما ان وقفت العربة ونزل منها العريس وقال بصوت آمر :

تفضلى حتى انكمشت العروس الصغيرة فى زاوية العربة الحانطور وتمنعت ولم تنزل من العربة ، كما قالت لها أمها وكما تقضى التقاليد !!

وفوجئت العروس بالعريس يتركها ويمشى فى طريقه الى داره وعندها وجدت نفسها تقفز من العربة وتعدو وراءه .

وكانت صفية زغلول تروى هذه القصة دائماً وهو تقول :–

ومنذ تلك اللحظة اصبحت اجرى وراءه دائماً .

وهكذا لم تشعر هذه العروس الصغيرة إلا ان هذا الرجل سيدها ، لاتتحرك إلا باذنه ، ولا تتكلم إلا همساً .. نسيت منذ تلك اللحظة إنها ابنة رئيس وزراء مصر ، ونسيت انها ولدت وأبوها وزير وانها كانت طفلة ابيها المدللة وانها عاشت طفولتها فى قصر ابيها الحاكم بين الجوارى والأغوات .

وقد كان لديها فى قصر ابيها أغا (عبد) اسمه فيروز حملها وهى طفلة فلما تزوجت اهدتها امها هذا الاغا .. واذ بعريسها سعد زغلول يرفض هذه الهدية ويقول لها انه يرفض ان يعيش فى بيته أغا ... لأن حرمان الرجل من رجولته وبيعه كالرقيق عمل غير إنسانى ، وهو لايقبل ان يعيش فى بيته جريمة تمشى على قدمين .

وبينما كان فى بيت شقيقتيها لكل منهما أغا خاص ... إلا انها وحدها التى ليس فى بيتها احد من الاغوات .. ورغم ان العروس فوجئت بآراء زوجها إلا انها ارتضت بحياتها ... وكانت اسعد امرأة بجواره ... حيث احست بجواره انه قوى وهى ضعيفة وانه شخصية وهى طفلة وانه استاذ وهى التلميذة فأسلمته من يومها الاول ارادتها وقلبها وعقلها ووجدانها ... ووجدت نفسها مع الايام تفكر كما يفكر وتتصرف كما يتصرف ورحبت بان تكون زوجة رجل يفخر بانه يرتدى ملابس التشريفة الموشاة بالقصب والذهب والنياشين وتحتها جلابية الفلاح المصرى الزرقاء .

وتتكلم صفية زغلول عن انتقالها بعد ذلك من حى الظاهر الى بيتها الجديد فى حى الإنشاء وهذا البيت بناه سعد زغلول بطريقته وبخياله وبعقليته .. فهو وحده الذى وضع تصميم هذا البيت الغريب ... وكان الذى يدخل هذا البيت لايصدق انه بيت رجل كان فلاحاً .

كان البيت مصمماً على طراز قصور الاثرياء فى فرنسا حيث كان سعد زغلول كثير التردد على عواصم اوروبا فى القرن الـ ١٩ وحرص على أن يكون البيت الذى يبنيه فى القاهرة على طراز هذه القصور الكبيرة واشترى بعض أثاثه من فرنسا وبعضه من النمسا والبعض الثالث من المانيا وكانت تحيط بالبيت حديقة واسعة ذات اسوار عالية يتوسطها باب حديدى ضخم وعلى يمين الداخل من الباب سلالم رخامية موصلة الى سلاملك فيه صالون كبير ثم مكتب لسكرتير ثم غرفة مكتب صغيرة ثم غرفة مكتب كبيرة وأمام هذه الغرفة شرفة كبيرة توصل الى باب غرفة المائدة ، بحيث إذا دخل الرجال لتناول الطعام لم يمروا بالقاعة التى تجلس فيها السيدات وكان تحت السلاملك سلم آخر يوصل الى خمس غرف كبيرة وكان المفروض ان هذه البدروم مخصص للخدم من الرجال . ولكن سعد زغلول لم يكن لديه قط هذا العدد الضخم من الرجال الذين يشغلون كل هذه الغرف .

كان هناك عم آدم البواب ثم حسن السفرجى ، ثم الحاج احمد الخادم الخاص لسعد زغلول (وكان يبيت فى داره خارج المنزل ويأتى صباحاً لمباشرة مهامه) (١) وتصف صفية زغلول البيت الذى عاشت فيه مع سعد زغلول حيث تقول كان فى مواجهة الباب الحديدى للدار سلم رخامى عريض يصعد نحو باب خشبى له نوافذ زجاجية وكان هذا الباب يسمى (باب الحريم) وهو يوصل الى صالة ضخمة تسع لثلثمائة شخص وكان على يمين الداخل غرفة للطعام تسع ستة وثلاثين ضيفاً ثم غرفة لأدوات المائدة (أوفيس) لاعداد الطعام يليها حمام ضخم ، ثم صالة توصل الى سلم حجرى يصعد الى الدور العلوى ثم السطح .

وتصف صفية زغلول البدروم الخاص بمنزل الزعيم بان به حوالى عشر غرف خصصت للمطبخ والغسيل والمكوى والكرار الخاص بحفظ وخزن الاطعمة .

وفى نهاية الصالة الصخمة سلم رخامى يوصل الى الدور العلوى والى اليمين غرفة لزينة عميد الاسرة ولبسه تتصل بغرفة واسعة ويفصل بينها باب كان فيها فراشان كبيران لرب الاسرة وزوجته كما تتصل بغرفة اخرى خاصة بسعد باشا لاستعماله الشخصى والى يسارها صالة واسعة فى نهايتها حديقة شتوية .

ولايعلم احد لماذا فكر سعد زغلول فى اقامة هذا البيت الضخم فى حى الإنشاء فى القاهرة لأن اسرته كانت تتكون منه ومن صفية زغلول فقط .

وبعد مضى عشر سنوات على زواجه يئس سعد زغلول من الانجاب .. وقد قام بعرضها على عدد من الاطباء فاجمعوا على ان زوجته لن تستطيع الانجاب ... ولم يجد أفضل من ان يترك ابنى شقيقته رتيبة وسعيد ليعيشا معه فى القصر متبنياً كلاهما .

وعندما اقام سعد زغلول هذا البيت الكبير لم يكن يشتغل بالسياسة بل كان مستشاراً فى محكمة الاستئناف .. والسؤال هو لماذا بنى شرفات تصلح لإلقاء الخطب وشرفات تصلح لاستعراض الجماهير وحدائق واسعة .. لعل احساسه الداخلى انه ذات يوم سيكون لهذا المنزل دور فى تاريخ مصر ... وهذا هو ماحدث بالفعل حيث اصبح المنزل فيما بعد مقراً للجهاز السرى للثورة بقيادة عبد الرحمن فهمى ، وأطلق على هذا المنزل بيت الأمة .

---

(١) كان الى جانبهم خادمة خاصة بزوجته هى مدام مارى بمثابة مدبرة للمنزل وايضاً طاه واحد هو الاسطى أحمد بدران .

كانت صفية لا تتناول طعامها إلا مع سعد زغلول ولم تتعود قط ان تأكل قبل زوجها ... وكان هذا يلتزم بمواعيد الطعام حرصاً على تجميع الاسرة وحبا لزوجته وحياة الزوجية وذات يوم تأخر سعد زغلول عن موعد غذائه المعتاد ... وعندما جلس على المائدة كان فى حالة يرثى لها لأنه سمع ان الانجليز قد رشحوا الامير احمد فؤاد سلطاناً على مصر بعد وفاة اخيه السلطان حسين كامل ، حيث عرضوا على ولده الامير كمال الدين العرش فرفض لظروف خاصة به .. وحزنت صفية لحزن زوجها ترشيح الامير احمد فؤاد للعرش (١) .

وكان العداء شديداً بين سعد وأحمد فؤاد وحاول سعد التصدى لهذا الاختيار بأن طالب بأن تقوم الجمعية التشريعية بترشيح من يخلف السلطان حسين كامل فى حكم مصر ... ولكن الجمعية كانت معطلة بسبب الاحكام العرفية ، وحاول سعد ترشيح محمود سليمان غنام باشا وهو فلاح من أعيان الصعيد وكان رجلاً مسناً محبوباً من الفلاحين وهو والد محمد محمود باشا صديق سعد زغلول الحميم فى هذه الايام ولكن انجلترا رفضت بشدة الاقتراح على اساس ان حق تعيين حاكم لمصر فى ظل الحماية البريطانية هو من اختصاص وزارة الخارجية البريطانية، وحزنت صفية لان زوجها لم يحقق مراده .

وتصف صفية من خلال جلساتها مع زوجها ماكان يقوله عن أحمد فؤاد...

١- كان يشعر بالشرف والفخار ان تعيينه سلطانا جاء عن طريق الانجليز.
٢- السلطان فؤاد –من وجهة نظر سعد –شرير وكان على استعداد لأن يبيع المصريين ليشترى رضاء الانجليز.
٣- كان فؤاد على استعداد لأن يدوس بقدميه على شعب مصر لكى يحقق مآربه الشخصية .

---

(١) فى سنة ١٩١٤ كان الخديوى عباس حلمى الثانى ابن الخديوى محمد توفيق فى تركيا وقد انتهزت بريطانيا فرصة دخول تركيا الحرب الى جانب المانيا وقامت بعزل عباس حلمى الثانى والغت منصب الخديوى واختار حسين كامل احد ابناء الخديوى اسماعيل وعينته على عرش مصر باسم السلطان حسين كامل الذى تولى الحكم فى ظل اعلان الحماية البريطانية سنة ١٩١٤ بعد إعلان انجلترا فصلها –اى فصل مصر –عن الدولة العثمانية نهائياً . وحكم السلطان حسين كامل ثلاث سنوات فقط ومرض فى ١٩١٧ ويئس الاطباء من شفائه وقيل انه اصيب بحالة جنون فى أواخر ايامه ثم اصيب بالشلل وقرر الانجليز ان يخلفه ولى عهده الامير كمال الدين حسين ولكن هذا كتب خطاباً الى الانجليز يعلنه فيه رفضه تولى العرش وتنازله عن كل حقوقه مما أدى ببريطانيا الى البحث عن أميرا أخر من الاسرة العلوية ووجدوا بغيتهم فى الامير أحمد فؤاد الذى حكم مصر كسلطان من ١٩١٧ حتى سنة ١٩٢٢ ثم اصبح ملكاً بعد تصريح ٢٨ فبراير من هذا العام وظل يحكم مصر حتى وفاته سنة ١٩٣٦ حيث خلفه ولى عهده الملك فاروق الذى أطاحت به ثورة ٢٣ يوليو بعد ١٦ عاما من الحكم .

٤- كان فؤاد يكره المصريين ويحتقرهم .
٥- ومن أخص صفاته التى كان يرددها سعد زغلول على مسامع زوجته حول فؤاد انه كان يعانق أعداءه ويغمرهم بالقبلات وهو يغمد الخنجر فى ظهورهم .
٦- كان فؤاد يعتقد ان مصر ضيعة لأسرة محمد على وأنهم السادة والشعب هو العبيد .

وتحكى صفية زغلول مأساة سعيد زغلول ابن شقيقته الذى كان يعيش معهما هو وشقيقته رتيبة وكان سعيد زغلول يعمل تشريفاتى لدى القصر فى عهد السلطان حسين كامل ... بمرتب اربعين جنيهاً ولكنه رفض الاستمرار وطلب نقله الى وظيفة اخرى خارج الديوان بمرتب خمسة عشر جنيهاً .

أما المأساة الثانية التى تحكيها صفية زغلول عن سعيد فهى قصة حبه لفتاة صغيرة تسمى نازلى ملأت قلبه وفكره وحواسه واحلامه وابوها هو عبد الرحمن صبرى باشا وكانت امها صديقة لصفية زغلول وقالت امها وهى على فراش الموت لصفية زغلول :-

أوصيك بنازلى اعتبريها ابنتك ، وعاملتها صفية كأنها ابنتها وكانت صفية ترسل باستمرار العربة الحنطور الى بيت نازلى فى الجيزة فتحضرها لتقضى اليوم كله مع رتيبه وسعيد ووهيبة ابنة شقيقة صفية ودارت قصة حب بين سعيد ونازلى وكان كل من سعيد ونازلى متمسكين تمسكاً شديداً بالاصول والتقاليد .

ولم يكن هواهما البرئ سهلاً ، فقد كان الاثنان يرتجفان من صفية زغلول فإذا جاءت وجلست معهما تشاركهما فى العابهما يتعمد سعيد ان يتجه بعينيه الى الارض حتى لا تلتقى عيناه بعينى نازلى وكانت نازلى تتعمد ألا توجه اليه اى حديث .

المهم ان قصة الحب هذه انتهت الى الرغبة فى الزواج .. خاصة وان صفية زغلول كانت لماحة ، قادرة على أن تقرأ ماتخفيه العيون وأعرب سعيد لشقيقته عن رغبته فى الزواج من نازلى وطلب منها ان تتولى ابلاغ صفية زغلول هذه الرغبة لتستأذن سعد زغلول فقد كان سعيد لايجرؤ على ان يتقدم بهذا الطلب مباشرة الى خاله .

الفصل الثانى
المواطنة فى ذهن أم المصريين

برز مفهوم المواطنة فى المجتمع الغربى عام ١٧٨٣، وعاش الناس فى عالم الفعل ايام الثورة الفرنسية والغيت القاب عصر الاقطاع وقلصت الكثير من سيطرة الكهنوت الكنسى وأصبح الناس يخاطبون بمواطن أو مواطنة ثم تطور المفهوم عبر ثورات متعددة ، وفى خضم صراع سياسى واجتماعى عاشه القرن الـ ١٩ والنصف الاول من القرن العشرين واسهمت فى ذلك تيارات سياسية واجتماعية وفكرية متعددة (١) .

ولايمكن فهم هذا التطور إلا بربطة بالدعائم الصلبة التى قامت عليها حداثة عصر التنوير فى القرن الـ ١٨ ويمكن تلخيص قيمها فى اربع مقولات :-

المقولة الاولى : لا سلطان على العقل إلا العقل نفسه .

المقولة الثانية : عظمة العقل فى ثالوث يقوم على العقلانية والحرية والعدل الاجتماعى .

المقولة الثالثة : تحرير التاريخ والانسان من اسطورة الحتمية .

المقولة الرابعة : تتعلق بشرعية السلطة ورضا الشعب عنها وحقها فى الاطاحة بها إذا اهملت مسئولياتها .

وهذه المقولات ليست غريبة على وطننا العربى ، إذ أنها انعكست بدرجات متفاوتة فى كتابات المفكرين العرب ابتداء من رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) وفرح انطون (١٨٧٧-١٩٢٢) وأديب اسحق (١٨٥٦-١٨٨٥) وسلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨) وأحمد لطفى السيد (١٨٧١-١٩٦٣)وطه حسين (١٨٩٩-١٩٧٣)

- ينسى الكثير من كتاب الغرب والشرق ايضاً أن أول من زرع المواطنة فى التاريخ كان النبى محمد عليه الصلاة والسلام فيما عرف " بالصحيفة " أو الكتاب وهو كتاب حدد فيه النبى (صلى الله عليه وسلم) نظام الحياة العامة بالمدينة وحدد المعاملة بين المهاجرين والانصار ثم حدد المعاملة مع اليهود بشروط ومعاهدة معهم . فهى وثيقة هامة فى تاريخ البشرية ونظمت العلاقات وحققت الوحدة بين أهالى المدينة جميعهم . وتتضمن هذا الكتاب المبادئ التالية :

١- مساواة كافة المسلمين فى الحقوق والواجبات على اختلاف قبائلهم وعشائرهم دون تفرقة فى لون أو عرق .

٢- أوجب التعاون والتضامن بينهم والأخذ بيد الضعيف والفقير والمحتاج .

٣- فتح الطريق لليهود فى الدخول فى الاسلام ، ومن يدخل منهم له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات مثل اى مسلم تماماً .

٤- سمح الرسول عليه الصلاة والسلام بحرية الديانة اليهودية اى حرية الاعتقاد كانت مكفولة لكل سكان المدينة ولايجبر احد على التخلى عن دينه وتلك بلا شك كانت أول صيحة فى موكب التاريخ تؤكد روح المواطنة .

فقط كتب هؤلاء حول الارادة الحرة وان الانسان هو صانع تاريخه وان التربية هى التى تبنى المواطن وان المواطن مسؤول عن اختياره وان المفروض فى الحكم العدل ، وأن السلطة شأن انسانى دنيوى وان الانسان وحده وعبر نضاله الطويل له الحق فى اختيار افضل انماط الحكم لتسيير شؤونه وله وحده الحق فى تغييرها اذا لم تستجيب لمصالحه .

ولاشك ان مفهوم حب الوطن هو الذى كان سائداً فى بلادنا .. وهو الترجمة الفعلية لمفهوم المواطنة لأن المواطنة مرتبطة بحب الوطن والذود عنه ولايتم ذلك إلا اذا شعر المواطن انه يتمتع بحقوقه التى هى متلازمة مع الواجبات دون اى تفرقة بينه وبين الاخرين بسبب اللون او الجنس او العقيدة .

ولمفهوم المواطنة علاقة متينة بمفاهيم ثلاثة هى التمدن والحقوق السياسية والمدنية ومرتبطة بالخصوص بالحرية فلا مواطن من دون حرية ومن المعروف ان ضعف الشعور بالانتساب الى الوطن او الى الامة يعزز الالتجاء الى الجماعة أو العشيرة أو الطائفة فيتمزق الوطن من الداخل .ولعل أعظم مافى أم المصريين انها كانت سابقة لعصرها .. كما انها كانت تقرأ كثيراً عن معنى الوطنية وتؤمن بان حرية الوطن لن تكون إلا من خلال حرية المواطن ولذا حرصت على ان يتجذر الشعور بالمواطنة عند كل المصريين وتتوارى امامه اى ثغرات طائفية.

المواطنه فى ذهن صفية زغلول :-

ارتباط الانسان بأرضه ووطنه ، الذى كان يعنى " المنزل" الذى يقيم فيه ، ثم صار يعنى اراضى المدينة مع نشوء دولة المدينة ، ولاحقاً ارتبط باراضى الدولة المحددة فى اقليمها الجغرافى وشعبها المعروف .. وفكرة المواطنة هى علاقة تفاعل بين المواطنين والدولة .. وعلاقة تعاون بين مواطن ومواطن ، ومن حيث هى حقوق وواجبات فى اطار قانونى محدد وواضح .

فى ظل المواطنة لا اقليات متناحرة أو مقصية عن الشأن العام . انها جزء من مجموع المواطنين المتساويين فى حقوقهم وواجباتهم وبما لا يخالف الشرع أو القانون ومع المواطنة تستقيم العلاقات بين الناس بعيداً عن الغلبة والاقصاء والتهميش فالقانون كفيل بتسوية النزاعات والخلافات الطارئة والولاء الوطنى يوحد الشعور والمجهودات الوطنية .

ويرتبط مصطلح المواطنة " "citizenship موضوعياً بمصطلحات الوطن

والمواطنة والوطنية.. فالوطن هو المكان الذى يعيش فيه الانسان ويتفاعل معه حياتياً ووجدانياً ، انه الارض المحددة فى جغرافيتها السياسية بعد ما صار للدولة مفهوم ومحددات قانونية وسياسية .

ولايمكن قيام دولة ما من دون ارض محددة ، وهو ما أصطلح على تسميته بالاقليم .. هذا الاقليم المحدد هو الوطن .

الانسان الفرد المرتبط بوطنه هو مواطن فى اطار التعلق بالارض وتبعاً لموارد العيش على ان مصطلح مواطن صار مرتبطاً بمضامين قانونية وسياسية واجتماعية مع تطور فكرة الدولة والانظمة السياسية والدستورية .

ان الالتصاق بالمكان والتعلق بالذكريات والتطلع الى الآمال أوجد شعورا وطنياً عند المواطن ، هذا فى الوقت الذى صار الدفاع عن الوطن واجباً دينياً واخلاقياً وقانونياً . وتحول الدفاع عن الوطن فى مواجهة الغزاة الى عمل بطولى فيه نوع من القداسة ثم إنتظم فى اطار القانون ومايفرضه من التزامات .

انها الوطنية القائمة على الشعور بالانتماء الى الوطن والولاء لشعبه ومصالحه العليا لذلك قدمت تضحيات ثمينة فى إطار الوطنية بلغت حد الاستشهاد .. هكذا منذ ان نشأت فكرة الدولة المدنية فى الحضارة الاغريقية القديمة ، وصولاً الى زماننا حيث شرع القانون الدولى والقوانين الوطنية حق الدفاع عن الوطن فى اطار حماية الارض وحق الدفاع عن النفس .

أما المواطنة ، فانها الاطار الجامع لتفاعل المواطن مع وطنه ، ولعلاقة المواطنين فى ما بينهم ضمن الدائرة الوطنية للدولة التى صارت محددة فى جغرافيتها السياسية ، ومركزها القانونى ، وطبيعتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... لم تعد المواطنة مجرد ولاء عاطفى وانتماء للوطن فحسب ، بل صارت كذلك نظاماً عاماً له محدداته وابعاده على مختلف الاصعدة الانسانية .

ومن هنا كانت صفية زغلول تؤكد لمن حولها انه لكى تتحقق المواطنة الكاملة لكل المصريين لابد من التوازن بين الفرد والجماعة ..توازن فى المصالح بحيث لا يتم سحق مصالح الفرد لحساب مصالح الجماعة ولا التضحية بالمصلحة الجماعية فى سبيل المصلحة الفردية .

كانت تشجع سعد باشا على التمسك بالوحدة الوطنية فى أى نقاش بينهما مؤكدة له :-

١- ان الاسلام لم يمنع مخالطة غير المسلمين فى مجتمع واحد وان اهل الكتاب هم فى منزلة المسلمين بالنسبة الى رد العدوان الخارجى .

٢- أهل الكتاب فى موقع الحماية من اى ظلم داخلى يطاول انفسهم وأموالهم، واعراضهم .

٣- مزامنة الدولة لجميع المواطنين لافرق بين مسلم وآخر فى غير اعتقاده.

٤- ويتولى أهل الذمة الوظائف العامة دون تفرقة إلا فى الكفاءة والقدرة .

وتأسيساً على ذلك لم تعد هناك حاجة فقهية ولاضرورة اجتماعية لاعتماد مصطلح الذمية فالمواطنة هى البديل الفكرى والموضوعى .

هكذا حددت ام المصريين لزوجها الطريق نحو بناء المواطن والوطن فى ظل وحدة وطنية متكاملة ضد العدو الغاصب وهو الاحتلال الانجليزى .

وساقت صفية زغلول خلال حوارها مع الزعيم سعد زغلول اربعة محددات فكرية تبرر اعتماد المواطنة بين المسلمين وغيرهم فى الوطن الواحد هى:

أ -المساواة فى الحقوق والواجبات امام قضاء نزيه يحترم الكرامة الانسانية حيث صارت الرسوم والضرائب مستوفاه من جميع المواطنين بلا تمييز .

ب- إعلاء قيمة الحرية وتطبيق مبادئ وقواعد الحريات العامة والخاصة ، هناك حريات التملك والتنقل داخل البلد الواحد والمحافظة على الأموال المنقولة وغير المنقولة هذا فضلاً عن حرية المعتقد .

ج -الهوية الوطنية الواحدة تتبلور فى اللغة الواحدة والرموز الوطنية والاعراف والعادات المتوارثة فى العلاقات الاجتماعية .

د -التنمية الشاملة فى إطار العدالة .. انها تنمية الموارد المادية والبشرية جميعها ، فى اطار التقدم الثقافى والعلمى ، ان مطلب الرفاة وتحقيق السعادة يجب ان يكون حقاً لكل المواطنين .

وكانت تركز دائماً على محورين لتحقيق هذه الوحدة الوطنية فى اطار المواطنة .

المحور الاول : هو الحرية للجميع بضوابط القانون وبأخلاقيات الضمير .

المحور الثانى : هو العدالة للجميع دون اى تمييز أو محاباه .

ومايزال الفكر الانسانى منذ ما قبل الميلاد يدور حول هذين المحورين أو هاتين القيمتين ولسوف يبقى باحثاً عن انسانية الانسان وقد جاءت اقوال سعد

زغلول عن الاقباط متأثرة بوجهة نظر صفية زغلول فى المواطنة (١) . ولعل ذلك يبرهن لنا لماذا كان سعد زغلول يصر على التمسك بالمادة ٢٣ من الدستور المصرى الاول بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .. فقد اجبر سعد زغلول على تطبيق مواد الدستور ممارسة فعلية.. وكان الملك فؤاد يتدخل فى أعمال لجنة الدستور املاً ان ينتزع لنفسه سلطات على حساب سلطات الامة تتيح له التحكم فى شئون الحكم ونجح فى ذلك حيث اصبح من حقه حل البرلمان دون قيد او شرط ، كما كان من حقه اقالة الوزارة مهما حازت لثقة الأمة ولكنه لم يستطع الغاء المادة ٢٣ من الدستور المصرى الذى صدر فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ ولما تولى سعد زغلول الحكم فى يناير سنة ١٩٢٤ استدعاه الملك فؤاد وقال له :

" اننى ارفض تماماً المادة ٢٣ من الدستور " وكانت هذه المادة تقول ان الامة مصدر السلطات وساعتها قال الملك فؤاد لسعد زغلول :

"أنا مصدر السلطات .. انا الملك .. ومن نسل الملوك "

وساعتها هب سعد زغلول واقفاً وقال للملك : " لتقل ماتشاء ولكنى اقولها لك " لست انت المسيطر على هذا الدستور ولكن المسيطر عليه هو الشعب الذى وضع الدستور واراده وهكذا كما هو هكذا كان انعكاس اراء صفية على مواقف سعد فى التمسك بالحرية كل الحرية للشعب (٢) .

ويتضح لنا ايمان سعد بفكرة المواطنة فى ضوء ما كان يدور من مناقشات بينه وبين ام المصريين عندما قام سعد زغلول بتشكيل حكومته ، عرف مكرم عبيد ان نصف المجلس من الاقباط تقريباً .. فكتب اسماء الوزراء فى ورقة وذهب الى سعد زغلول وقال له " أنى ارى هناك وزراء اقباط كثيرين "

---

(١) من اقوال سعد زغلول فى هذا الشأن :

" ان للاقباط مالنا من الحقوق وماعلينا من الواجبات على قدم المساواة (٢ ديسمبر ١٩١٨)

" ان الاتحاد متين بين الاقباط والمسلمين (٢٣ يونيو ١٩١٩)

ان الثورة لم تقدم دعماً للدين وانما اشتعلت حبا فى الوطن (١٨ فبراير ١٩٢٠)

(٢) جاء الامر الملكى الصادر يوم ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ لسعد زغلول متجاهلاً فوز سعد زغلول وحزبه فى الانتخابات التى اجرتها وزارة يحيى ابراهيم بنزاهة حيث قال :-

" لقد اقتضت ارادتنا توجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدكم" .. رد عليه سعد : " ان الرعاية التى قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها لشخصى الضعيف توجب على والبلاد داخلة فى نظام نيابى يقضى باحترام ارادتها وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها الا اتنحى عن مسئولية الحكم التى طالما تهيبتها فى ظروف اخرى ؟ .

وهكذا كان ايمان سعد بفضل الشعب فى توليه الوزارة وليس الفضل يعود الى الملك فؤاد .. وكان الملك فؤاد غير مرتاح لنتائج الانتخابات التى اكتسحها سعد زغلول وحزبه . وكان رد فعل الملك انه تأخر عشرة ايام قبل ان يقبل استقالة وزارة يحيى ابراهيم ويكلف سعد زغلول بتكليف وزارته .

فاخذ سعد زغلول الورقة وقرأ الاسماء ورد عليه قائلاً " انا مش شايف اقباط .. انا شايف مصريين " ويجب ان تعرف ان كلمة قبط تعنى مصر ولم يسكت سعد زغلول بل واصل كلامه :-

" عندما يكون الاختيار للمناصب نتيجة للكفاءة والاجتهاد تتقدم الاوطان .. ومصر نسيج واحد يعيش مسلموها وأقباطها فى ود ومحبة دون اى ضغناء .. لقد علمنا اسلامنا الحنيف ان ننتمى لأوطاننا ونعمل على حمايتها من اى متطرف وجاهل ومتعصب "

وعندما كان يحكى سعد زغلول كل ذلك لزوجته صفية .. كانت تبتسم فى فرحة.. لانها على نفس الخط من حيث فهم جوهر المواطنة وحقيقة ما تعنيه(١) .

ولكل ذلك لا نستغرب ان احب الاقباط سعد زغلول ووقف معه الكثير من زعامات الاقباط مدافعين عن سياسته ومؤيدين رؤيته فى مواجهه المشكلات التى واجهته نذكر منهم واصف بطرس غالى ، سينوت حنا ، وويصا واصف وجورج خياط .

لقد كان اعظم ماأفرزته ثورة ١٩١٩ وجعل للثورة مذاقاً خاصاً ووضع الانجليز فى مأزق هو مفهوم الوحدة الوطنية والاعتزاز بان الجميع مسلمين واقباط ويهود اخوة شركاء فى هذا الوطن ... وان عدوهم واحد وان وحدتهم هى طريق النصر .. وان الدين للديان والوطن للجميع .. ولم يكن ذلك إلا لوعى أم المصريين وتأييد سعد لفكرتها واندماج كل شباب مصر من أجل الهدف الاسمى الحرية والاستقلال .

كانت تنادى بأن الديمقراطية فى عصرنا فلسفة حياة وثقافة إنسانية فضلاً عن كونها ممارسة عملية على أرض الواقع .. فالديمقراطية ثقافة وممارسة وهى

---

(١) كان يتردد على مسامع زوجها :

" ان المواطن الجدير والشجاع الحقيقى والذى يستحق ان يتولى تقاليد الحكم يهب نفسه للخدمة العامة ، حيث لايبتغى اى اثراء او سلطة لنفسه ، والذى يعتنى بالمجتمع بكامله فلا يتجاهل اى جزء منه والذى يفضل ان يفارق الحياة ذاتها على ان يعمل اى شئ مناقض للفضائل "

وكانت تؤكد لكل من حولها ان حق الانسان فى الحرية والعدالة وسيادة القانون ليست غربية او شرقية وإنما هى قوانين انسانية شاركت فى تحقيقها روافد حضارية متعددة وهى زاد لكل الانسانية من اجل التطور والتقدم .

وأما حقوق المواطنة المستقاه من ابعاد المواطنة فهى منضبطة فى اطار الدولة الوطنية بما فيها من قانون محلى (داخلى) وأعراف وعادات اجتماعية متوازنة وكان سعد متأثراً بكل افكار زوجته والتى اثبت انها لاتعرف عصبية أو عنصرية وإنما كان هدفها الانسجام والتناغم بين أبناء الوطن من أجل العطاء والانتماء .

لا تتحقق بأى انقلاب عسكرى ولا بتغيير نظام الحكم بين ليلة وضحاها .. بل هـى تحتاج الى مسار طويل من التجربة وما يحوطها من مراجعات وتصويبات .

الا ما أعظم إيمان هذه المرأة بوطنها .. وما أبدع فهمها لشخصية المصريين الذين عجزت عن فهمهم الكثير من المحللين والمراقبين والسياسيين وأكدت أن الاقرار بحق المواطن فى إدارة الشأن العام هو مقدمة أساسية لممارسة الديمقراطية أو للمشاركة فى الحياة السياسية ، فالمجتمع السياسى الديمقراطى هو الاطار العام لتفاعل المواطنين فيما بينهم وتفاعلهم مع الحاكم وممثلى الشعب . وكانت دائما تردد :-

"ستكون الديمقراطية مشوهة إذا ما تقلدت فئة من المواطنين الوظائف العامة من دون غيرها من فئات المجتمع وعليه فإن التمايزات الطائفية والمذهبية ، والأثنية والعشائرية هى عوامل سلبية تأخذ الديمقراطية لحساب غلبة فئة على فئة بما يناقض حقوق المواطنين وواجباتهم التى يفترض أن تبقى متساوية" .

الفصل الثالث
صفية زغلول ودورها النضالى
بين عامي ١٩١٩-١٩٢٢

عندما أعتقل الإنجليز سعد زغلول لأول مرة صرخت صفية زغلول ضد المعتدين مطالبة بأن تكون معه فى المنفى الذى اختاروه له وكان ذلك يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ ولكن الإنجليز رفضوا تلبية رغبتها .

وهنا وقفت زوجته مع الحركة الوطنية تصدر المنشورات والبيانات التى تشد أزر الشعب وتدعو للصمود وتبشر بالنصر وتؤكد أن كل المصريين هم سعد زغلول .. وأطلقت على منزلها الذى كانت تعيش فيه هى وسعد اسم بيت الأمة .. وأطلق عليها الشعب اسم " أم المصريين " .

وقد جاء فى أول بيان أصدرته فى أعقاب القبض على زوجها واعتقاله ثم نفيه إلى مالطه مايلى[١] :

" إن كانت السلطة الإنجليزية الغاشمة قد أعتلقت سعد ولسان سعد فإن قرينته شريكة حياته السيدة صفية زغلول تشهد الله والوطن على أن تضع نفسها فى نفس المكان الذى وضع زوجها العظيم نفسه فيه من التضحية والجهاد من أجل الوطن . وأن السيدة صفية فى هذا الموقع تعتبر نفسها أماً لكل أولئك الأبناء الذين خرجوا يواجهون الرصاص من أجل الحرية " .

وقامت بتكليف سكرتيرتها بإلقاء هذا البيان على المتظاهرين الذين كانوا قد إحتشدوا بالالاف حول منزل سعد زغلول .. وبعد إلقاء البيان هتف أحد قادة المظاهرة قائلاً .. " تحيا أم المصريين " ومن يومها أصبح لقب السيدة صفية زغلول .

وكان من المفارقات أن السيدة صفية لم تنجب أبناء لها .. فعوضها أهل مصر رمزاً من أعظم رموز الوطنية ..

فالوطنية ليست بالوراثة ولكنها اختيار .. وقد اختارت أم المصريين أن تنحاز إلى الوطن وتنسى تماماً أفعال أبيها وأصلها التركى الموالى لأعداء الوطن .

وأكدت السيدة صفية زغلول لكل من حولها أن للسيدات دخل كبير فى نهضة

(١) أصدر قاسم أمين هذا الكتاب سنة ١٩٠٠م وأهداه الى سعد زغلول .

الأمم والمجتمعات وفى تطور الشعوب والحكومات وأن سيدات مصر لا تقل أبداً عنهن وظهر ذلك واضحاً فى الشجاعة والإقدام اللذين أبديهن مما أعجب به كل واحد منا وكل ناظر إلينا .

وإذا كان وراء كل عظيم أمرأة عظيمة فإن فضل صفية زغلول على الحركة النسائية خصوصاً الحركة الوطنية عموماً وعلى سعد باشا بشكل أخص لايمكن لأحد أن ينكره .

وكانت صفية تشجع زوجها على استقبال الوفود النسائية وتجلس معه لتستقبلها ومن ذلك اللقاء الذى تم فى مكتب سعد ببيت الأمة فى اليوم الأول من فبراير حيث استقبل وفداً نسائياً خطب فى الحاضرات فيه قائلاً .

" أيتها الآنسات .. إنى مبتهج بزيارتكن وأعبر لكن بدورى عن سرورى برؤيتكن راغبات فى المعاونة فى العمل الاجتماعى والفكرى المفروضة على الجميع . إنى من أنصار تحرير المرأة ومن المنتفعين به لأنه بغير هذا التحرير لانستطيع بلوغ غايتنا ، فلقد شاركت منذ أمد بعيد صديقى المرحوم قاسم بك أمين فى أفكاره التى ضمنها كتابه الذى أهداه إلى (يقصد كتاب المرأة الجديدة) فضلاً عن أن الدور الذى قامت به المرأة المصرية فى حركتنا الوطنية كان عظيماً ونافعاً فاستمررن إذن فى العمل الذى بدأتن به وأنا ضامن لكن النجاح التام (١) .

وهكذا أسهمت صفية زغلول فى اتساع الدور الذى قامت به المرأة المصرية فلم يعد قاصراً على الحفلات الخيرية داخل أروقة المساجد والكنائس أو الإجتماعات الوطنية والمظاهرات التى أقلقت المستعمر ، بل أصبح للصحفيات منهن دورهن الذى لا ينكر فى النهضة السياسية فبرزت بفضل تشجيع صفية زغلول مجلة الأمل سنة ١٩٥٢ وصاحبتها منيرة ثابت كما ظهرت إلى الوجود مجلة هدى شعراوى عن مصر وكان الفضل لصفية زغلول فى ظهور مجلة روز اليوسف لصاحبتها فاطمة يوسف والتى تحولت بفضل تشجيع صفية زغلول إلى مجلة سياسية .

وعندما وقف الرجال بالمرصاد لوفد السيدات الوفديات سنة ١٩٢٠ الذى دعى لتمثيل مصر فى المؤتمر النسائى الدولى مما أساء إلى السيدة صفية زغلول ونجحت بعد ثلاث سنوات فى أن يشارك وفد من النساء المصريات فى المؤتمر الدولى الذى عقد فى سنة ١٩٢٣ .

وقد نجحت صفية زغلول فى تشجيع هدى شعراوى وزميلاتها على إنشاء الاتحاد النسائى المصرى فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٣ ولم يعيرها أن يكون هذا الأتحاد جنباً إلى جنب مع الحركة النسائية الوطنية التى كانت تمثلها لجنة السيدات الوفديات وكان الاتحاد النسائى المصرى هو أول من نظم مؤتمراً نسائياً عربياً للدفاع عن قضية فلسطين سنة ١٩٣٨ .

ومن الطريف أنه فى اكتوبر سنة ١٩٢٣ نشرت مجلة اللطائف المصورة صورة فوتوغرافية كبيرة لأم المصريين بعد عودة سعد من منفاه وكتبت المجلة هذا التعليق أسفل الصورة :

هذه آخر صورة لصاحبة العصمة حرم الرئيس المحبوب أم المصريين السيدة صفية زغلول . وقد تعطفت وسمحت لمصور اللطائف السيد "زولا " المصور الشهير فى العاصمة بتصويرها هذه الصورة الجميلة فى بيت الأمة غداة وصولها بالسلامة ، وفى اليوم التالى لنشر الصورة عقبت جريدة مصرية أسمها أبو الهول على هذا الحدث منتقده ما فعلته صفية وخروجها على التقاليد ، ورأت أن خروج زوجة زعيم فى مكانة سعد لا تليق بها ولا بغيرها من المصريات .

ولما سألوها ما العمل طلبت عدم الرد على المجلة ناشرة الصورة أو أن يكون هناك تعقيب على هجوم مجلة أبو الهول وذلك تجنباً لمعركة غير محسوبة العواقب ، فالعادات المصرية آنذاك لم تكن تقبل بما حدث .

وكما يقول ثروت اسحق : أستاذ علم الا جتماع بجامعة عين شمس :

لقد خلفت صفية زغلول زوجها فى إذكاء روح المقاومة ضد الاحتلال ووقفت شامخة مما أرغم سلطات الاحتلال على السماح لها أن تذهب حيث تشاء بعد أن كانوا يأبون عليها أن تذهب إلى زوجها فى منفاه .

وظل بيتها يعرف ببيت الأمة ويعد معقلاً من معاقل الوطنية المصرية وأطلق عليها الناس لقب " أم المصريين " لمواقفها الوطنية الرائعة بجانب زوجها ولقيادتها الثورة إبان غيابه .. أما دورها المجتمعى فلا يمكن إنكاره .

فهى بحق أنشودة وطنية ومعزوفة قومية ولحن موسيقى سماوى ينبغى أن نوفيها حقها الواجب فى ذكرى تحرير المرأة المصرية ونواليها مانالته من تقدير واحترام كل المصريين والمصريات المسلمين منهن والأقباط .

وفى الفترة مابين نفى سعد زغلول حتى لحاقها بزوجها فى منفاه الثالث فى

جبل طارق لم يسكت صوتها عن تشجيع المصريين مواصلة الكفاح من أجل الحرية والاستقلال وأعظم ما قامت به الالتقاء بالمتظاهرين والخطابة فيهم وتشجيعها السيدات على مواصلة طريق النضال .. ثم الاجتماع بزعامات الوفد التى لم يعتقلها الاستعمار البريطانى .

المنشورات والبيانات الثورية لصفية زغلول لنصرة ما نادى به سعد زغلول من مبادئ

أعظم ماقامت به صفية زغلول هى قيامها بنفسها بإصدار مجموعة من المنشورات والبيانات الثورية لم تنشرها الصحف وقتئذ لأنها كانت مقيدة والرقابة على أشدها تستخدم كسلاح للمصادرة ولذلك لم تجرأ صحيفة على نشر مثل هذه البيانات والمنشورات .. ومن ثم لجأت أم المصريين إلى طبعها وتوزيعها باليد على الشعب فى كافة أنحاء القاهرة بل كان هناك من يتسلم هذه المنشورات ويقوم مندوبون بتوزيعها على نطاق المحافظات .. وقد كان لهذه المنشورات فعل السحر وكانت تمثل دفعة قوية فى الحركة الثورية :

جاء فى أول منشور كان تاريخه ١٠ مارس سنة ١٩١٩ ما يلى :

" أيها المصريون .. انشدوا الحرية التى وهبتكم إياها السماء .. لاتتقاعسوا أمام الاحتلال البريطانى فهو رغم قوته أضعف منكم لأنه رقم قوته إلا أن الشعب أقوى منه .

قفوا أمام أولئك الذين يطلقون فى ربوعكم الشامخة تيارات الهدم كى يختنقوا حريتكم ويحولوا بينكم وبين إرادتكم المبدعة ومثلكم .. وسعد فى المنفى ينتظر منكم الصمود والتضحية .. ومهما حاول المستعمر ومن معه أن يقيدوكم فأنتم قادرون على النصر عليه وعلى السائرين فى ركبه ..

نحن طلاب حق .. نحن طلاب عدل .. نحن طلاب حق تقرير المصير لبناء مجتمع أفضل ولن نتقاعس خطوة واحدة عن تحقيق أهدافنا .. نحن نسعى من أجل مصر .. نحن نثور ليس من أجل سعد ولكن من أجل الوطن .. والذى له دين فى رقبتنا جميعاً ولن نسدده إلا من خلال التضحية والجهاد ".

صفية زغلول

وفى المنشور الثانى نجدها تقول :

أحبائى .. أبنائى .. بناتى .. رجال مصر ونسائها .. فى أحضان الحرية يتفتح الرأى مثلما تتفتح الزهرة فى صحوة الشمس يبللها الندى ويداعبها النسيم وبين يديها تندفع المواهب من مكانها تخترع وتبتدع لتنشئ مقومات الأمة . والحرية تبعث العدل .. ولأن العدل لايبسط جناحيه إلا فى ظلالها ولذا فنحن ندافع عن الحرية والعدل من خلال نضالنا وصمودنا وإجبار المحتل الغاصب على احترام إرادتنا .

" إذا اختفت الحرية مات العدل .. وإذا مات العدل إضطربت الموازين ، واختلت درجات المقاييس .. فما أسعد الأمم التى تظللها الحرية ويشيع فى أرجائها العدل " ..

وإذا تكلم الباطل .. فالحق يختنق .. وإذا تكلم الغاصب أمن المسئ وإذا أمن المسئ توارى الاطمئنان .. وإذا توارى الاطمئنان أصبح المجتمع ذليلاً .

إننا ياأبنائى ويا أخواتى ننشد الحرية حتى لانكون صيداً مباحاً ونؤمن بها كى نسمو عن عبادة الأصنام إلى عبادة الديان .. ونريدها لنبدع فى ظلالها ، لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً ، ولن تستطيع قوة فى العالم ولاجبار من جبابرة الأرض أن يسلبنا ما وهبنا جبار السماوات والأرض .

أبناء وطنى وبنات وطنى رجالاً ونساءً وفتياناً وفتيات :

العقل الراكد عبد ذليل ، والحرية لاتنبعث من فم العبد كما لايستنبط الماء من الصخر الصلد .

أنت أيتها الحرية هبة الاله ، وأدم هو الكائن الحى الذى اختارته إرادة السماء ليكون خليفته فى الأرض .. وليس من حق أى أمة أن تستعبد أمة أخرى ولسنا صيداً مباحاً .. فقد أجمعت شرائع الأمم المتحضرة على القول : إن الإنسان سيد نفسه وأفراد الأمة كلهم سواسية كأسنان المشط .. فخوضوا المعركة سوياً وكونوا يداً واحدة ضد المستعمر .. فالأمة التى يطمئن فيها المواطن على مستقبله يعرف فيها الفرد ثمن الحياة وحق الوطن .

بيت الأمة فى ١٣ مارس ١٩١٩

صفية زغلول

أما المنشور الثالث فقد صدر يوم ١٧ مارس ١٩١٩بعد مظاهرة النساء الشهيرة وظهور تلك المظاهرة بالمظهر المتحضر .. ورغم تصدى الإنجليز لها بالرصاص إلا أن اصرار النساء على توصيل عرائضهن إلى السفارات والقنصليات الأجنبية أفقد الإنجليز وعيهم وهنا يجئ المنشور الثالث الذى أصدرته أم المصريين حيث قالت :

أيها المصريون ..

إذا كان التفاخر والتكاثر فى شئ بيننا وبينهم ، فإنما يكون بماضينا وحاضرهم لنا من ماضينا ما نزهو به ولهم من حاضرهمماينتهون به .. ولكنهم خرجوا على ناموس الحياة ووقفوا ضد حرية الشعوب وظنوا أننا سنخضع لهم ..

نحن نقول لهم أن كل أسرة مصرية تكرهكم وهى تأمل فى يوم تخرجوا فيه من مصرنا الحبيبة .

سعد موجود بيننا .. سواء فى منفاه أو فى بلده وبين مؤيديه وأنصاره فسوف يظل الرائد الأول للأمة الذى أشعرها بثقة الوحدة وبنبل النضال زرع فينا الصدق والوفاء والحب لهذا الوطن العظيم .

ما أبدعت أمة من الأمم حضارة سامية إلا إذا كان رائدها العقل الذى يحكمها فى تصرفاتها وسلوكياتها ، ولاإرتقت سلم المجد إلا بالتضحية من أجل حرية الوطن وتوفير العدالة للمواطنين .. فإن فى العبودية هلاك للعقول وحجر عليها وبلادة الشعوب وليدة كهوف العبودية .

والأمة التى يتعانق فى نضالها الأمل والحرية تمتلئ بالإبداع والتكوين وتتوج المثل العليا أفعالها وأقوالها وتصفو سرائرها وظواهرها . فتسلحوا بالأمل ودافعوا عن الوطن وليعانق الفرد أخاه على اسم الله والوطن .

بهذا وحده يدرك المحتل الغاصب أن لامكان له بيننا وعلى أن وجوده لن يستمر مهما كانت قوته وجبروته وتسلطه ومحاولته البقاء بيننا .

ياشباب هذا الوطن وشاباته .. ياكل مخلص لمصر الغالية عليكم أن تدركوا أن العبودية إذا القت عصاها فى أمة صدئت أفكارها كما يصدأ الحديد فى المكان الرطب وخمدت جزوة الفكر فيها وبرد إحساسها وشعورها ومات ضميرها

وتبدلت قوى العقل فيها بغرائز البطن وعادت حركاتها إنعكاسية وأصبح التكالب فيها على إشباع الغرائز وبرزت الفردية وظهرت رءوس الأنانية .. كونوا يداً واحدة واعملوا من أجل هذا الوطن فسعد سيعود والأمة لن تموت وكلنا فداء الوطن .

بيت الأمة ١٧ مارس سنة ١٩١٩

صفية زغلول

يجئ المنشور الرابع ليؤكد ثورية أم المصريين ودعوتها من أجل استمرار النضال والعمل يدا واحدة فى سبيل نصرة ما نادى به سعد من مبادئ وما حمله من قيم ومادافع عنه من مبادئ بكل ما يمتلك وكيف أنه تحمل النفى والتشريد رغم كبر سنه من أجل توحيد كلمة المصريين والتصدى للاحتلال .

فتقول أم المصريين :

" إن البناء الضخم لايقيم أعمدته إلا المهندسون الماهرون الذين يؤمنون بجمال الصنعة وأن الفضيلة لاتسير إلا فى مواكب العلماء وان الشجاعة لاترفرف بأجنحتها إلا على رءوس الأبطال ، وان الإبداع لايكون إلا على أيدى جموع الشعب وإن الأمة لاتساير ركب الأمم إلا إذا أعانها المؤمنون بحقها الذين تكمن بين جوانحهم إرادة الحق لأن ارادة الحق تتطلب التضحية ولايضحى إلا المؤمنون فى ظلال الحرية " .

أيها الشباب إن العبودية تخلق أشباه الرجال .. بينما الحرية تصنع الأبطال المنتمين للوطن المضحين من أجله مهما كان ثمن التضحية والفداء .. يظن الإنجليز أنفسهم أسود الغابة وأنهم مظهر القوة وهم أهل الإرادة وأنهم أصحاب رسالة للتمدن والتحضر .. ولكن وجودهم فى مصر أكد أن كل ذلك هراء ولا أساس له من الصحة .. وليس أدل على ذلك من :-

ما يعانيه الشعب من أزمات اقتصادية .. وما حدث له نتيجة الأحكام العرفية ومصادرة ثروات الغلابة من الفلاحين وسوق العمال لأعمال السخرة فى ميادين القتال .. ولن ينسى الشعب بشاعة حادثة دنشواى فأين هو التحضر وأين هو التمدن .

ان الحقائق تتضح أمام كل من يفكر كيف كانت مصرنا فى عهد محمد على وكيف كانت أيام اسماعيل ثم إلى ماذا صارت بعد وقوع الاحتلال .

ولقد أكد التاريخ العريق للأمة المصرية ان الإنسانية أولى مبادئهم والوطنية تاج هذه الإنسانية .

إننا ننشد الحرية ونسعى لاسترداد الحق المهضوم ومن طبائع الأمم الحية أن تأخذ أمجاد أوائلها فنبنى مثل ما بنوا ونفعل فوق ما فعلوا .

المجد.. المجد .. اركنوا إلى التنظيم ، فإن التنظيم ركن الإبداع ، ولاتركنوا إلى الفوضى فترتبك أموركم وتشتبك سبلكم .. اقطفوا أثمار المجد فى

توحيد صفوفكم واعلموا أن كل خطوة فى التنظيم طعنة نجلاء فى كبد الخصم.

وتختتم صفية زغلول منشورها بقولها :-

لاحياة بلا استقلال .. ولاحياة بلا حرية .. ولاحياة بلا مجد وشرف " كونوا يدأ واحدة ضد الطغاة .. وستحصلوا على ماتنشدون "

بيت الأمة ٢٥ مارس ١٩١٩

أم المصريين

وتوالت منشورات أم المصريين ومنشورات رجال الوفد أصحاب سعد ورفقاءه فى النضال .

وقد جاء فى منشورها المؤرخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٤٠هـ الموافق ٤ فبراير سنة ١٩٢٢ ذلك المنشور الذى تلاه عدة بيانات من الوفد ورجاله يقول :-

نداء إلى الأمة المصرية

أبناء وطنى الأعزاء أرادوا أن يسكتوا سعد وصحبه فنفوه ، ثم أرادوا أن يسكتوا من بقى من أعضاء الوفد فاعتقلوهم . ثم خافوا عاقبة مايفعلون فأفرجوا عن هؤلاء الأعضاء ولكنهم فى الوقت نفسه أكرهوا الصحف على أن تجهلهم ليمتنع عليهم أن يخاطبوكم .

وبينما سعد وصحبه منفيون وبينما أعضاء الوفد محرومون هذا الحرمان من أن يخاطبوكم تظهر دعوة لوزير سابق باسم شروط قدمها لتأليف وزارة . ويظهر بعض الذين أيدوا فى الأشهر الماضية حزبه ضد الأمة نصراء الدعوة الجديدة يقيناً أنهم بكل ذلك لايريدونه إلا أن يخدعوكم فى ثباتكم ليزحزحوكم عن موقفكم الذى ينؤ الإنجليز أن تظلوا فيه يريدون أن يلهوكم بقشور لا قيمة لها عن الإهانة التى أصابتكم عن طلبكم الجلاء والاستقلال ، أيضاً يريدون ذلك ويريده الموظفون البريطانيون أيضاً فلا عجب أن يكون هؤلاء وأولئك متضامنين . والأن لم يكفهم أن أبعدوا عن مصر سعداً وصحبه بل هم يريدون فوق ذلك أن يكون نفيهم إلى أرض مهجورة قاصية .

ظنوا أنهم أبعدوا السعة بينهم وبينكم ، أناؤهم عن قلوبكم وطوحوا إلى النسيان ذكراهم توهموا ذلك وأملوا أن تخمد الحماسة التى تتأجج فى صدوركم ويهبط اليأس بعزائمكم فيهون إخضاعكم ويسهل تسليمكم .

لم يكفهم أن يعزلوهم عنكم حتى يريدوا أن يعزلوهم عن العالم كله ولماذا لأى جريمة لأنهم نادوا بأسمكم وطالبوا باستقلالكم ولم يستعملوا ذلك إلا السلاح السلمى سلاح الحق والإقناع .

لئن كان سعد شيخاً فثقوا أن هذا النفى لايهد من عزيمته إلا شئ واحد هو أن يعلم يوماً ما أنكم أعتراكم الضعف ولو لحظة واحدة فتركتم للاعبين أن يلعبوا بموقفكم وبحقوق هذا الوطن عليكم .

ثبتوا إذن أقدامكم وانبذوا الخادعين من بين صفوفكم وذودوا زود الأباة عن استقلالكم واصبروا فقد قاربتم نهاية الطريق فأنتم فيها بإذن الله غانمون فائزون .

٧ جمادى الثانية سنة ١٣٤٠

٤فبراير سنة ١٩٢٢

صفية زغلول

الفصل الرابع
أم المصريين فى المنفى مع زوجها

يشمل هذا الفصل ذكريات أم المصريين عن النساء اللاتى شاركن فى ثورة ١٩١٩ ثم كيف سافرت إلى زوجها فى المنفى لترعاه وتشاركه النضال .

كانت أم المصريين صفية زغلول عندما تتكلم عن سيدات مصر اللاتى شاركن فى ثورة ١٩١٩ تتذكر أولى الشهيدات من النساء فى هذه الثورة المجيدة ، وهى شفيقة محمد عشماوى حيث أعلنت هدى شعراوى رئيسة اللجنة التنفيذية للنساء أن شفيقة هى أول إمرأه مصرية تسقط برصاص الانجليز عند اندلاع أحداث الثورة فى مدينة القاهرة وكان سبب الوفاة خروج رصاصة اخترقت الصدر والبطن ، أطلقها عليها الانجليز وذلك يوم ١٦ مارس سنة ١٩١٩ وهو اليوم الذى اعتبر عيد المرأه المصرية .

كانت تتكلم عن رفيقة كفاحها من أجل حركة نسائية رائدة لكل المصريات هدى شعراوى وسيزا نبراوى وأنجى أفلاطون .. وكانت تتغنى بالدور الذى لعبته السيدة فهيمة هانم ثابت كريمة المرحوم حسن بك ثابت رئيس محكمة أسيوط سابقاً ، وهى سيدة من أكرم العائلات المصرية ، كانت هى وشقيقاتها فى مقدمة السيدات اللاتى تزعمن الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، كما كن من أوليات من اشتركن فى النهضة النسوية فى مصر ومن المؤسسات لكثير من التشكيلات الاجتماعية والثقافية وأحقها بالذكر جمعية المرأة الجديدة .

وكان للسيدة فهيمة هانم شرف مرافقة أم المصريين فى سفرها إلى سعد بمنفى جبل طارق ، كما كان لها شرف مشاركتها هذه الغربة المضنية وفى سبيل الجهاد الوطنى . وقد كتبت فهيمة ثابت مذكرات عن الفترة التى قضتها معها فى المنفى ، وقد طلبت أم المصريين من السيدة فهيمة ألا تنشر هذه المذكرات إلا بعد وفاتها -تواضعاً منها وبالفعل هذا ما نفذته فهيمة ... وهذه المذكرات تخليداً لجهاد أم المصرين ووقوفها مع زوجها الزعيم سعد زغلول .

وقد أهدت كتابها إلى روح أم المصريين الطاهرة والى سيرتها الغالية العاطرة ، وإلى تاريخها الحافل بالجهاد وإلى ذكراها التى تعلو نور الشمس فى البلاد ... فقد شاركت سعد فى التضحية وآزرته فى الشدائد .. وتؤكد فهيمة ثابت أن

صفية زغلول تحتسب من النساء الصابرات المثابرات وأن الله اصطفاها لتكون زعيمة مع الزعيم ترفع معه النداء وتقف إلى جانبه يوم البذل والفداء

وصفتها بأنها امرأة تتمتع بمجموعة من الفضائل الوطنية وأنها كانت الشريكة الوفية الصادقة ، وتصف فهيمه ثابت فى بداية مذكراتها التى كانت بعنوان " الزعيم الخالد وأم المصريين فى منفى جبل طارق "... تصف المظاهرة الأولى للسيدات فى إبان النهضة القومية تلبية لنداء الوطن سنه ١٩١٩ وذلك على أثر اعتقال زعيم الأمة الخالدة الذكر سعد زغلول باشا واخوانه فى مالطة فتقول : -

نهضت السيدات محتجات على السياسة الغاشمة مستبقات فى الجهاد وقد جمعن فى جهادهن بين خدمة الوطن وأعمال البر والإحسان ، وتجلت فكرة المظاهرة الأولى عند أغلب السيدات من صفوة المعلمات ومن كرائم الأسر الراقيات ، أسفرت المظاهرة عن إيمانهن ووطنية صادقة فكانت آية من الآيات التى بهرت العالم بمظهرها الرائع فى نظامها ووفرة عدد المشتركات فيها .

ومن كان لهن سابقة معرفة بأم المصريين ، فقد أثرن ألا يقمن بأمر دون مشورتها فصعدن إلى الدور الأعلى من بيت الأمة وعدن إلى جمهرة المتظاهرات لابلاغهن قرار عصمتها وخطبت إحداهن قائلة : -

ان أم المصريين وهى تحى حضراتكن ترى من اللائق إلتزام جانب الهدوء والسكينة بعد ما سجلت السيدة المصرية ، موقفها من الجهاد لإنقاذ وطنها العزيز . ولما كانت هذه المظاهرة الكبرى أبلغ احتجاج صارخ ضد الظلم والظالمين وضد هذا الاعتداء المسلح الذى تقوم به السلطات الغاشمة ومادامت الأمة قد طالبت بحقها ورفعت صوتها عاليا فى صوت المرأة المجاهدة فإنى حين أدعو إلى السكينة أحب أن لا تمس شعرة واحدة من رأس سيدة مصرية ، وسنجاهد ان شاء الله الى النهاية فان حجزتكن السلطة اليوم فسنعود مرة أخرى " .

وكانت كل مظاهرة نسائية بعد خروجها تعود إلى بيت الأمة ... وقد أرادت أم المصريين أن تتعرف إلى السيدات المؤسسات لمشروع المرأة الجديدة وتقابلت الجماعة لأول مرة مع أم المصريين حيث استقبلتهن بالترحيب والتشجيع وأثنت على جهودها المتواضعة المشرفة .

وعلى أثر ذلك اشتركت صفيه هانم هى وجميع عائلتها وصديقاتها فى هذه النهضة الخيرية ومنذ ذلك الوقت بدأت الاجتماعات الأسبوعية تتوالى فى بيت

الأمة لتقف إلى جانب أم المصريين كلما جد جديد .. واستمر ذلك حتى يوم الإفراج عن أعضاء الوفد ... المعتقلين فى مالطة ويوم ذلك شاركت السيدات الوطنيات مع الزعيم فى كفاحه من أجل مصر.

دور أم المصريين بعد اعتقال سعد للمرة الأولى :-

استولى الذعر على كل المصريين والتقت فئة من المصريات بأم المصريين لمواساتها وإعلان احتجاجهن وكانت الأنباء قد تسربت إلى جميع السيدات فازدحم بهن بيت الأمة وكان ذلك مظهراً وطنياً قل أن يشهد له نظير وقد روت فهيمه ثابت رفيقة أم المصريين الحديث الوطنى الذى أجرته صفيه مع اللورد اللنبى تليفونياً إذ قالت له أم المصريين :-

" إنى طلبت إليكم أن تعتقلونى مع قرينى سعد زغلول لأتولى السهر على راحته لأنه مريض ويحتاج لعناية فلم تقبلوا ، ولما علمتم أن الوفد يجتمع فى بيت الأمة أرسلت تصُرح لى بالسفر واللحاق به فاعلم أذن أننى أرفض السفر ، وسأقوم مقام سعد وسأقود الحركة الوطنية بنفسى ، وأننى أول من يحتج على المظالم التى ترتكبونها وسترون أن الأمة عن بكرة أبيها متراصة البنيان ، وكل مصرى فيها سعد وإن اعتقلتموه وأصحابه أعضاء الوفد ظلماً وعدواناً فسيقوم مقامه كل مصرى وستتولى الوفود من أبناء الأمة حتى أخر فلاح مصرى يلبس الجلباب الأزرق وسيظل منزلى مفتوحاً للأمة إلى آخر نسمة من حياتى ،والقوة لها أن تفعل ما تشاء ولتسجل عليها أعمالها عاراً لا يمحى فى صحائف تاريخها الدامية ، وليسجل التاريخ هذا الظلم والاستبداد بحقوق المصريين واعلم أنه سيأتى اليوم الذى فيه تندمون لأن دولة الظلم ساعة ، ودوله الحق إلى قيام الساعة "

ولم يجب اللورد اللنبى عليها ، ولم يوجه عدوانه اليها شخصياً ، ولكنه بدأ يعتقل أعضاء الوفد ويلقى بهم فى غيابات السجون ، وكلما اعتقل وفد تجدد وفد آخر .. وقادت أم المصريين الحركة الوطنية ، بإيمان وثقة مدة أقامتها فى مصر .. ولما نقل الزعيم من سيشل الى جبل طارق وهو معتل الصحة ، ارسل اليها برقية للشخوص اليه فلبت نداء الواجب كرغبته وعزمت المسير اليه فسافرت فى الحادى والعشرين من سبتمبر ١٩٢٢ .

وقبل السفر عقدت أم المصريين اجتماعاً فى بيت الأمة حيث قالت إحدى المصريات لأم المصريين فى هذا الاجتماع :

" ألم ترد رسالة من الزعيم ، كيف كانت صحة معاليه بعد مغادرته سيشل الى جبل طارق ؟.

فأجابت أم المصريين بتأثر :

" نعم وصل منه خطاب يرجونى فيه أن أمضى الى جبل طارق وفى هذا الخطاب يقول كذلك ، إذا سمحت ولم يكن السفر يتعبك فأقدمى الى لأنى محتاج لعنايتك .. فما أنبل شعورك يا سعد وتواصل كلامها ..

" وقد أجبت فى الحال بأنى قادمة فى أول باخرة وصممت على السفر حتى لو أشتد مرضى لأن الواجب ينادينى أن أكون بجانبه أتولى مواساته وأشاطره عبء النفى فى سبيل الوطن ولكنى أشعر بمسيس الحاجة الى أن تصحبنى إحدى المواطنات لأنى تعبة مجهدة وأحب أن تكون معى فى رحلتى مصرية مخلصة لتؤنسنى وتسرى عنى ولم يسعدنى الحظ حتى الآن بهذه الأمنية ، مما اضطرنى الى استدعاء ممرضة أجنبية غير انى رفضت أن تصحبنى هذه الممرضة أيضا ، وكان ذلك فى وقت متأخر بعد أن تمت اجراءات استخراج جوازات السفر إذ تبين أنها كانت تريد أن يكون معها فى هذه الرحلة رجل تقول أنه خطيبها والآن تجدنى فى حيرة ، إذ لم يبق سوى خمسة أيام تبحر بعدها الباخرة .

وقد تقدمت حرم أمين يوسف بك ، وحرم سليم اللوزى بك وكثيرات غيرهن كل منهن تعرض تمام الاستعداد لشرف هذه الصحبة والسعادة بهذه الرحلة فشكرت لهن هذه العاطفة النبيلة وقالت :

" أنا لا أحب أن تبتعد سيدة عن قرينها وضميرى لا يرتاح الى ذلك " .. وهنا تحركت فهيمه ثابت لتشارك أم المصريين رحلتها مؤكدة لمن حولها أنها لن تترك أم المصريين تعانى آلم الغربة والوحدة فى رحلة موحشة .. وقالت فهيمه ثابت أن عصمتها –أى صفية زغلول – تضرب المثل الأعلى بمشاركتها قرينها الزعيم فى منفاه " .

وعلى آثر ذلك أوفدت فهيمه ثابت الى بيت الأمة شقيقها "لابلاغ رغبتى فأن صادفت قبولاً أسرعت الى مقابلة أم المصريين فى غير خجل" وقد قالت عصمتها لشقيقها :

" كيف تتمكن من ذلك وماذا تصنع مع نجليها" ، فأقنعتها بأنهما فى رعاية عمهما وخالتيهما فى حياة لا ينقصها شئ من الراحة ، فتقبلت أم المصريين ذلك

قبولاً حسناً وعندما علم الكثيرات من ذوى قرابتها أبدين السرور والارتياح لأن تكون فهيمه ثابت صاحبة الشرف فى مرافقة أم المصريين الى صخرة ابن زياد - جبل طارق .

وفى يوم سفر أم المصريين خرجت جموع القاهرة يؤازرها جموع من كافة أنحاء الوطن محتشدة لتؤدى واجب التوديع لشريكة سعد فى طريقها اليه وليحملوها رسالة الشوق والتطلع الى رؤية أبيهم الغائب " .

واجتمعت الوفود والحشود فى بيت الأمة وألفت موكباً يحف بالزعيمة المجاهدة حيث اقلها القطار .. فكان يوماً مشهوداً ازدحمت فيه وفود الأعيان وممثلوا الهيئات ومندوبو الأمراء والجميع يرفعون باقات الأزهار تنشر عطر الوفاء والإخلاص من صميم إيمان الشعب الى أم الشعب وتحرك القطار وسط عاصفة من التصفيق والهتاف وكان على جانبى الطريق من مصر الى المرفأ جموع الفلاحين والفلاحات يودعونها ملوحين بأغصان الأشجار وسعف النخيل يرددون أغنياتهم بأعلى اصواتهم :

" يا سلمى يا سلامة تعود يا سعد بالسلامة " .

ومن دلائل تعلق الشعب بأم المصريين حدث أن أختفى فى بور سعيد صبى من الأسرة هو مصطفى أمين (صاحب جريدة أخبار اليوم والصحفى الشهير فيما بعد) فانزعجت السيدات لتأثر والدته وبلغ مسامع أم المصريين فتأثرت جداً وغادرت حجرتها لتسأل عنه فجاء أحد الضباط فسألته عن الصبى وهى مضطربة ، ففتح رداءه وأظهره سليما فكانت مفاجأة سارة ابتهجت لها أم المصريين .. وعند انصراف الضابط أدى التحية لعصمتها وأسر لها :

" أن بلغى سعد أن الجيش والبوليس وضباطه وقواده معه وتحت أمره ورهن إشارة معاليه" فشكرته على ذلك .

وفى الطريق الى جبل طارق وعلى متن الباخرة تقدمت سيدة لتصافح أم المصريين على غير تعارف سابق سوى أنها سمعت بالشئ الكثير عن مكانتها من الزعامة فى الجهاد الوطنى فرحبت بها أم المصريين وأجلستها لجانبها ولم تلبث السيدة أن دعت قرينها وقدمته الى أم المصريين وكان يشغل وظيفة وزير الأفغان المفوض بدمشق فى طريقه الى منصبه الجديد " وأكدت المرأة الأفغانية أن ملك

الأفغان يكن لمصر أنبل العواطف وأضافت " يعلم الله نحن فى بلادنا وقلوبنا معكم " .

ثم أقبل احد السوريين وأدى التحية كذلك وقال :

"بلادنا تحييكم وتدعو لكم بالنصر ونرجو لكم عودا سعيداً مع زعيم مصر " .

ثم جاء أحد الهنود وتلاه آخرون من ايران والعراق يدعون بالنصر لسعد ويقدرون دور أم المصريين فى الوقوف بجانب زوجها .. وقالت فهيمه ثابت لأم المصريين :

" إن الله سيكرمنا وسنذهب الى جبل طارق لنرجع بصحبة الزعيم الجليل ، ألم تلاحظى كيف أن جميع الناس يتجهون بقلوب ملئها الرجاء والإكبار فقالت أم المصريين إنشاء الله .

واستمرت رحلة أم المصريين سبعة أيام حتى وصلت الى جبل طارق ، ولما غادرت الباخرة أدخلوها هى وصديقتها فهيمه ثابت غرفة صغيرة ، ودخلت معهما سيدة اسبانيولية فتشتهما من الحذاء ثم بعد ذلك صعدتا الى الباشا الذى كان واقفا فى وسط الحجرة وهو يقول " أهلا أهلا .. كنت أحب مقابلتكم على الشاطئ لولا أنهم زعموا أنهم يخافون على من شدة العواصف والرياح والجو المتقلب والحقيقة أنهم يمنعونى بلطف وقد أجلسونى هنا فى انتظاركم حيث أرانى الله وجوهكم جميعاً بخير والحمد لله على سلامتكم " .

وحملت العربة الزعيم وقرينته وفهيمه ثابت .. وكانت هى عربة الحاكم وأخذ سعد باشا يقص عليهما بعضاً من أخباره ثم التفت الى فهيمه ثابت وقال "لماذا أنت صامتة يا أبنتى ؟ ألا تقصين علينا شيئاً من انباء مصر المحبوبة " فردت فهيمه ثابت :

"أننى فضلت الإصغاء الى معاليكم ، أما مصر والأمة المصرية جميعا فهى بخير وتقدم عظيم إخلاصها وثقتها لرئيسها وزعيمها المضحى بحريته فى سبيلها " فرد سعد زغلول " أنت يا ابنتى تحسنين الحديث بعقل وروية .. هل سبق أنى عرفتك فى مصر ؟ وهل تذكرين أنى أعرف أحداً من أسرتك "؟ .

وردت فهيمه ثابت " نعم أنك تعرف والدى فهو صديقك حسن ثابت وكيل محكمة الزقازيق سابقاً وربما تتذكر معاليك يوم العودة من فرنسا يوم اشتركت فى تحيتكم مع وفد من السيدات " .

وهنا تدخلت أم المصريين فى الحديث وقالت :

" هـى من السيدات العاملات فـى السياسة منذ البدء فـى الحركة الوطنية ، ومن المؤسسات لجمعية "المرآة الجديدة" فقال :

وأنعم بك يا أبنتى من أجل هـذا تحسنين الكلام عن خبرة ، أنـا مسرور جداً يا صفية لوجود هذه السيدة معك خصوصاً أنها أبنة صديقى " ثم التفت سعد زغلول وقال :

" هل أخذتم اسم المرأة الجديدة رمزاً وتحقيقاً لأفكار صديقى المرحوم قاسم أمين بك التى ضمنها كتابه "فردت فهيمه ثابت:

"نعم يامعالى الزعيم " فرد سعد زغلول " وأننى كذلك من أنصار تحرير المرأة والمعتنقين لهذا المبدأ "(١) .

وظلت أم المصريين مع زوجها فى منفى جبل طارق ستة شهور وثلاثة أيام ، وكانت أم المصريين خلال تلك الفترة قد اعتبـرت رفيقتها فهيمه ثابت بمثابة ابنه لها وطلبت من جميع الخدم أن يكونوا مطيعين لها واستودعتها مفاتيح الخزانة المودع بها حليها والمبالغ المالية بها .

وكانت أم المصريين ترد على البرقيات التى ترد اليها أو إلى زوجها .. وكانت البرقيات غير قاصرة على المصريين بل أن سيدة ايرلندية تسمى مسز جرتلن أرسلت برقية لأم المصرية تقول فيها :

" إن مئات من مواطنيها الموجودين فى باريز يأملون فك إعتقال الباشا فى هذا العام ١٩٢٣ ، كما وصلت برقية من الدكتور حامد محمود يقول فيها :

" أن الانجليز فى مصر اجتمعوا ليقرروا وضع حد للحوادث وأن الجرائد الانجليزية توجه اللوم الى اللنبى على سياسته خصوصاً عندما نشر تقريراً عن صحة معالى الرئيس فى الوقت الذى تطالب فيه الأمة جمعاء بعودته ثم لم يعمل شيئاً ، ولما عاد كتب تقريراً آخر عن تحسن صحته لم يصدقه الناس وتأكدوا أنه

(١) وصف سعد زغلول رحلته من جزيرة سيشل الى جبل طارق بأنها كانت أسوأ رحلة بحرية قام بها فى حياته إذ وضعوه فى حجرة صغيرة جداً غير مريحة وأغلقوا عليه الباب والنافذة ولم يسمحوا له بالرياضة فوق سطح الباخرة ولا بالتكلم مع أحد ووضعوا حرسا مسلحا على بابه حتى مرض لأن سعد كان من طبيعته لا يستطيب السكون والراحة .. وكذلك كان حال سكرتيره وطاهيه فقد احتجزا كل منهما فى زنزانته مغلقة تحت الحراسة المسلحة ، وانذروهما بالاعتداء على حياتهما إذ تحركا أو تمردا لأن الأسطى احمد الطاهى كان يستغيث ولم يسمحوا له أن يطبخ للباشا كعادته وأخروا الباخرة لتدخل فى ميناء السويس بعد منتصف الليل وكذلك خرجوا بالباخرة من بور سعيد ، فقد مرت الباخرة فى البحر الأحمر وعبرت القنال دون أن يشعروا احداً من الأمة المصرية بوجود سعد فى القطر المصرى خوفاً من أن يروا بأعينهم تعلق الشعب بزعيمه المفدى .

قد أريد به تهدئة الخواطر " .. فقال سعد زغلول تعليقاً على هذه البرقية عندما عرضتها أم المصريين :

"إذا كنت يا اللنبى لا تريد إرجاع سعد فلماذا نشرت التقرير الصحى .. أليس لتجس النبض ولما عرفت أن الأمة مجمعة على المطالبة بعودة المنفيين والمعتقلين ، فلماذا لم تحسن سياستك ، هذا غريب أن الانجليز أنفسهم عرفوه وانتقدوا سياسته " .

وكان الحوار دائما بين أم المصريين وسعد حول الأحوال فى مصر وحول ماذا سيأتى به المستقبل .

وكانت صفية زغلول تقول للباشا :

يجب أن تتعلم المرآة كل شئ ، وكلما تعلمت المرأة أنجبت أولاداً متعلمين ، وكلما كان الرجل كامل التربية كان الوطن متقدماً فيجب إذن قبل كل شئ تعليم المرأة خصوصاً فى وطننا " وكان يحلو لها أن تسأله :

"هل تحفظ القرآن يا سعد الى الآن ولم تنسه ؟ فقال لها " انى احفظه وأجوده وأعرف تفسيره ، فقرأت عليه صورة قريش ففسرها لها .

وسألته عن اللغات التى تعلمها فقال لها :

تعلمت الفرنسية عن رشدى باشا وقت دراسة القانون وكنت فى الحلقة الرابعة ، كما تعلمت الألمانية على يد المدموازيل فريدة لما حضرت لدينا وكنت فى الحلقة الخامسة وتعلمت الانجليزية وأنا فى الحلقة السادسة .

وسألته أم المصريين ولماذا تعلمت الانجليزية .. فقال " لما كنت بالسويس يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ احضروا لن جندياً انجليزيا يخدمنى فتحيرت معه فاضطررت الى تعلم بعض كلمات لأفهمه رغباتى ولما جاء مكرم عبيد انفرجت الأزمة وفكرت أن أتلقى علي يديه درساً بعد قيامنا من السويس فى ١٩ يناير ١٩٢١ فسهل على الكثير وكنت أبحث كثيراً وأمكث ساعات طويلة أحفظ الكلمات الانجليزية عن ظهر قلب لكى أتمكن منها لاتفاهم مع الانجليز بلغتهم وفى الحق أن مكرم باشا عاملنى بلطف كبير ولم يتضجر أبداً من مضايقتى له على هذه الصورة فأنا لا أنسى له ما حييت هذا الكرم المتناهى واحمد الله على ذلك لأن حياتى كلها صرفت فى تلقى العلوم .. ألا تذكرين يا صفية " .

فقالت "نعم أتذكر جيداً أنك كنت دائما تشتغل حتى أن طبيب مصحة

كارلسباد قال لى مرة زوجك هذا لا يمكن أن يعيش بدون شغل والراحة تتعبه " .

كانت أم المصريين حسنة المعاملة لكل من يحتك بها وكانت سيدة منزل فاضلة وفى المنفى كانت تحرص على الأشغال اليدوية لتسلى وقتها بها ، وكانت فى الوقت نفسه ترتب لمواعيد الباشا .

وعندما كان الانجليز يقومون بإحدى مناوراتهم ذات مرة فى قلعة جبل طارق فإن قوة القذائف أدت الى تحطيم بعض النوافذ وكان منظرا رائعا حقا تجلت فيه أنبل عواطف أم المصريين وأسمى المشاعر تجاه زوجها فقد قالت له :

أنا خائفة من أجلك يا سعد باشا وليس من أجل نفسى .. ماذا نصنع فى هذه الحالة أرشدنا فقال سعد : لا شئ سوى أن نمكث هنا سوياً حتى يصنع الله بنا ما يريد " .

وفى يوم الخميس أول فبراير ١٩٢٣ قالت أم المصريين لزوجها :

" أنظر يا سعد جلد وجهى لم يعد يحتمل شعاع الشمس وفى الحال يتأثر وجلد اصبعى جرح من خيط حريرى فقال لها أذن أنت التى عناها الشاعر :

قطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمى بنانه .

فضحكت أم المصريين وسرت كثيراً من كلامه وأخذ يحفظها هذا البيت ويكرره وبعد الظهر بدأ الباشا يتكلم مع زوجته فى السياسة فقد كان يشركها معه فى كل شئ فى المنفى ويستنير برأيها .

ودارت مناقشة حول السودان فقال سعد زغلول .. الخوف من الضعفاء والانجليز يمكن أن يعملوا وحدهم بدون اشتراك أصحابهم الضعفاء منا "

فقالت أم المصريين :

لو لم تكن زوجى وأنت رجل غريب عنى وبهذه الوطنية والحماسة لجئت اليك من أقصى الدنيا لأخدمك وأقبل يديك " .. ثم التفتت الى فهيمه ثابت المرافقة لها فى المنفى حيث قالت : " يا ابنتى لقد عرضوا عليه أحسن مركز فلم يقبل " وكانت تقصد بذلك العرض الذى عرضه عليه الانجليز أن يصبح سلطاناً لمصر فى ظل الحماية البريطانية وإلا النفى الى سيشل فرد قائلاً: الى سيشل .

وهنا رد سعد قائلاً لها " هذا أقل ما يجب وألا أكون خائنا لوطنى " .. وقالت أم المصريين لله الفخر يا سعد برفضك .. وما معنى منصب كبير غير مرضى عنه من الأمة ، بل وأنت اليوم فى منفاك تقدرك الأمة المصرية وترفعك الى

أعظم مركز فى نفوسها لأنه بعملك هذا رفعت قدر مصر والمصريين وكنت مثالاً لكل مصرى خصوصاً لرجال المستقبل " .

فقال سعد :

" نعم هذا حق ولكنى لست أنظر الى من يرفعنى أو يخفضنى إنما أعمل ما يرضاه ضميرى وحبى لوطنى واخلاصى للعرش إنما هم يحسبونى ضعيف أمام أعمالهم القاسية ، فأفرح بما يعرضونه على ويمنونى به وقد أتى البارحة أحد أعوانهم يعرض على ما عرضوه من قبل فثرت لكرامتى وكلمته بشدة "

وكانت أم المصريين تحكى لفهيمه ثابت رفيقتها فى المنفى الكثير من الحكايات ومن ضمن هذه الحكايات حكت لها عن الأحلام والرؤيا فى الليل حيث قالت صفية هانم لها :

" إن والدتها سهرت فى منزل خال والدتها عبد القادر باشا حلمى وعادت سيراً على قدميها الى منزلها لقرب المنزلين فسقطت عنها ساعة محلاة بالماس والمينا أهدتها لها صديقتها حرم الباشا الأنف الذكر ولما دخلت حجرتها وبدلت ملابسها لم تجد الساعة فتأكدت أنها ضاعت ونامت تلك الليلة فرأت فيما يرى النائم أن إحدى السيدات أتت اليها وقالت لها ساعتك تحت الشجرة بالقرب من منزل فلانة هانم فأرسلى من يحضرها لك قبل طلوع النهار لئلا يأخذها أحد المارة وتنبهت من النوم فى الساعة الرابعة صباحاً فأرسلت فى الحال سيدة عجوز تثق بها وصفت لها المحل الذى تجد فيه الساعة فذهبت حسب الوصف ، وعادت اليها بها " .

ثم قصت على فهيمه ثابت فى المنفى مناما آخر رأته أم المصريين نفسها وتحقق فى الحال وهو أنه جاءت لها والدتها فى الرؤيا وأخبرتها عن سر لسعد باشا آلمه ولم يعرفها به لئلا تتألم معه وفى هذه الليلة كان الباشا متغيباً وعاد الى المنزل متأخرا فلما أصبح الصباح سأل حرمه ماذا بك هل تتألمين عن شئ فقالت له ولكن حلمت بوالدتى فتذكرتها فقال لها أنها سيدة من الأولياء فماذا رأيت ، خيرا إن شاء الله فقالت له أم المصريين وإذا أخبرتك بما قالت لى بخصوصك هلى تصدقنى القول يا سعد فقال لها أعدك بذلك فأخبرته بالسر الذى أخفاه عنها فقال لها هذا حق وقد حصل ولكنى أخفيته عنك لكى لا تتألمى .

وفى ٢٠ فبراير ١٩٢٣ وصلت الى أم المصريين فى المنفى برقية من هدى

شعراوى تقول فيها " أن إغلاق بيت الأمة نشأ من غلطتهم وتعنى بهذا أن سبب إغلاق بيت الأمة يرجع الى غلطة الوفديين أنفسهم وبدأ سعد زغلول يكتب الكثير من البرقيات يستغرب ويستفهم عن السبب فى إغلاق بيت الأمة .

وكان سبب غلق بيت الأمة أن فصيلة من الجنود الانجليز كانت تتربص بالبيت وهاجمته أثناء وجود أحد الاجتماعات به فقبضوا على كل من كان به وفتشوهم ثم قفلوا البيت ووضع حرساً عليه " وقد بكت أم المصريين لهذه الحالة وقالت :

" أنا خائفة يا سعد أن يقولوا أننى هربت من الميدان " فقال سعد لها :

"تريدين السفر والعودة الى مصر أنت حرة ثم أمسك بيدها وقال لها " كان يجب أن تتشجعى ... فما قيمة المنزل اذا كان أصحابه بعيدين عنه .. ليصنعوا به كيف شاءوا والحمد لله أن أعضاء الوفد لم يعتقلوا فيمكنهم أن يجتمعوا فى أى مكان " .

فى أكس ليبان كانت عصمة أم المصريين والباشا يقضيان وقتاً فى الحمامات الكبريتية بعد الإفراج عن سعد وحرمه والمنفيين معه وقد أدلى أحد زوار سعد فى اكس ليبان بشهادته عن أم المصريين :

أن مصر تعرف ما قامت به من جهود نبيلة وتضحيات مجيدة عالية فى سبيل مصر وإعلاء رايتها والمساهمة الصادقة فى الوفد مدة أقامتكم فى سيشل ثم مشاركتها لمعاليكم ألم المنفى فى جبل طارق وتحملها مشقة الأسفار والانتقال " فأجاب سعد باشا محدثه بأنها كانت على استعداد لتقديم حياتها فداء لوطنها عندما توجهت مع زملائى الى المعتمد البريطانى وقلت لها إذ ذاك اعلمي يا صفية انى أمضى الآن حاملاً رأسى على كفى الأيمن لأقدمها فداء لمجد بلادى ، وما دمت قد بدأت السير فى هذا الطريق فلن أعود منه حتى أحقق الحرية لأمتى أو أموت فى سبيلها " فقالت لى :

يا سعد أننى معك فى جهادك وإيمانك بحق الوطن وإذا كنت تحمل رأسك على كفك اليمنى فلتكن رأسى على كفك اليسرى .. ويواصل سعد كلامه " وفى الحقيقة أن صفية كانت دائما شجاعة ونظرت اليه أم المصريين وقالت :

لا أستحق هذا الثناء .. أرجو أن نعمل جميعا لاستقلال بلادنا هذا ما أطلبه دائما من الله .

عند عودتها من المنفى الى الأسكندرية هى وزوجها استقبلت السيدات حرم

الرئيس المحبوب على الميناء بمظاهرة كبيرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم وشاركت سعد زغلول عظمة هذا الاستقبال اعترافا من الشعب بدورها النضالى فى سبيل حرية مصر .

لقد تميزت أم المصريين بالكثير من السجايا .. وطنيتها الصادقة وإيمانها العميق وذلك الإيمان الذى دفع بها الى الاستهانة بالأخطار ومقابلة الشدائد بصبر أشد منها وهو الإيمان الذى حدا بها الى احتمال الغربة وقضاء ما يقرب من سبعة شهور فى عزلة موحشة على صخرة جبل طارق ثم الانتقال الى فرنسا بعد ذلك .

كانت خيرة فكثيرا ما تبرعت للجماعات الخيرية فى الوقت الذى تؤثر أن لا يعلم أحد شيئاً عن إحسانها وبرها وهكذا بقى نشاطها الاجتماعى فى تعضيد الهيئات المختلفة طى الكتمان لا يعلم به إلا القليلون فما من جماعة خيرية ولا نهضة ترفع مقام المرأة المصرية إلا ولها فيها اليد الطولى والقدح المعلى .

كانت أيضاً تتسم بالتواضع ورجاحة العقل وسماحة الخلق ونزاهة القصد والسماح والصفح عن المسئ وتشجيع المحسنين وكانت دوما تقرأ القرآن وتستضيئ وتعده دستور الخلائق وعنوان الصلة بالخالق .

وما أحوج الجيل الحاضر أن يستوعب هذه الفضائل لنقدمها اليه لتكون نبراسا له فى نهضته وزاداً فى رحلته مع قافلة الأمم الى المثل الأعلى .

وستبقى ذكرى أم المصريين من مفاخر المرأة فى الشرق عامة وفى مصر خاصة .

الفصل الخامس
صفية زغلول الزوجة .. والرمز

كانت صفية زغلول إحدى الدعائم النضالية من أجل بث الروح الوطنية لدى كل المصريين .. وكانت تقول دوماً أن الامم أجسام تحتاج الى الرؤوس لتعمل وعلى مقدار قوة الرأس تكون قوة عمل الجسم .

ووصفت سعد بأنه فتح مصر المحبوب رغم شيخوخته وذلك فى حياته ومماته لانه قام بالجمع بين عناصر القطر المصرى بلا تفريق فى العقيدة والطائفية ومزجها فى قومية مصرية واحدة ، كما قام بتحريك الطبقات وفتح السبل لمن كانت السبل مغلقة فى وجوههم وتمهيد الطرق لبروز الشخصيات التى لولاه لظلت فى المرتبة التى ولدت فيها ... لقد كانت تقصد من وراء ذلك ان ثورة ١٩١٩ كانت السبب فى حراك اجتماعى لم يألفه الشعب المصرى من قبل .. كما ان ثورة الشعب فى ١٩١٩ – كما تقول صفية زغلول –كانت هى الدعوة الفعلية لتحرير المرأة فباسم سعد اجترأت المرأة المصرية على رفع صوتها ، وتحت لوائه سارت مواكب النساء فى الشوارع وهتفت بحياة الوطن للحرية والاستقلال وتلقى الرأى العام المصرى صوت المرأة وتعود هتافها وأصبح يصغى لسماع مطالبها فى تهيب واحترام ... ليس فقط لما قدمته من تضحيات ولكنها كانت فى ظل تحركاتها تسعى للوقوف الى جانب الرجل لتطالب بالجلاء والاستقلال .

وكانت صفية زغلول تقول دائماً لمن حولها .. قد يتساءل البعض من القلوب الواجفة .. وماذا بعد سعد ؟ .. وماذا بعد ان انطفأ ذلك النور الوهاج الذى كان يفيض على البلاد كلها ... اقول لكم .. كلكم سعد .. كلكم استمرار لوجوده لأن اثره لايمحى من النفوس وفعله لايزول من الصدور .

وكل من يقرأ عن اللحظات الاخيرة التى عاشتها الزوجة خلال المرض الذى الم بزوجها يشعر الى أى مدى أحبت سعد ... وأحبت الوطن ... ودفعت ثمن ذلك مرتين مرة لكى تغفر خطايا والدها ومرة ثانية فى أنها عاشت مايقرب من العشرين عاماً بعد وفاة سعد وحيدة كل همها الوطن ... والجماهير... والشعب.

ويكفى ان نحكى مشهد يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٦ وكان الشعب يحتفل بمناسبة عيد الجهاد الوطنى ، وكان سعد مريضاً راقداً فى فراشه يتكلم همساً

ووجهه يختلج وعيناه مطبقتان والاطباء يحيطون به وهمس كبير المعالجين فى أذن صفية زغلول قائلاً اننى لا أوافق على ان يخرج سعد باشا اليوم .. لو خرج قد يموت فى الطريق وحاولت صفية ان تثنى زوجها عن الخروج ولكنه صمم وخضعت ام المصريين بعد أن قال لها وهو يوجه كلامه للأطباء :-

" اننى افضل ان أموت بين الشعب على ان اموت فى فراشى "

ولفوا سعد بدثار ثقيل وارتدى معطفاً وامسك عصاه يتوكأ عليها وسار بخطوات وئيدة متثاقلة من بيت الامة وكانت المسافة بين البابين عشر خطوات ولكن سعد قطعها فى عشر دقائق .

دخل السرادق وجلس يستمع الى الخطباء منهوكاً ضعيفاً وإذ بالشعب ينادى بصوت كالرعد .. " عاوزين سعد .. عاوزين سعد " واذا بهذا الرجل يقف بقامته المديدة وينتفض فجأة ويمشى الى المنبر بخطوات شاب ويصعد الى المنبر كابن العشرين ويخطب فى الشعب بصوت كالمناجاه ينتهى كالزئير .. وتحول الشبح الى رجل والرجل الى بطل والبطل كإعصار حيث ينتهى الخطاب بين التصفيق والهتاف وتقدم بعض الشباب يريدون حمله ولكنه قال لهم " سأمشى على قدمى وانتهى الاحتفال وعاد الى بيته فإذا صفية زغلول تستقبله على السلم واجفة خائفة مشفقة وحولها الاطباء وتقول فى لهفة :

ماذا حدث ياسعد ؟

وضحك سعد وقال : حدث شئ عظيم .. لقد وجدت دواء جهله الاطباء .

قالت : ماهو ؟

قال : حماسة الشعب ، اننى عندما ارى هذا الشعب قوياً احس ان قوته انتقلت الى .. وانى لا أموت إلا عندما يموت .

وأصر الدكتور على ابراهيم رامز ان يكشف على سعد ليرى حالته الصحية بعد الخطاب وفوجئ بأن الضغط تحسن وضربات القلب تسير سيرها الطبيعى وضحك الدكتور على ابراهيم وقال : كأنك أمضيت ثلاثة شهور تستشفى فى أوروبا لا ثلاث ساعات فى خطب .

وعندما اشتد المرض بسعد وساءت صحته بدأت صفية تلازم الغرفة ليلاً ونهاراً وفى أخر لحظات حياته فتح سعد عينيه ونظر الى صفية وكأنه قرأ فى

وجهها درجة حرارته العالية فأطبق عينيه ووجم .. وارادت صفية ان تطمئنه فقالت له انت احسن كثيراً .

فقال سعد : لا .. مفيش فايدة انا انتهيت .

وجملة " مافيش فايدة " هى الجملة التى تمسك بها أنصار التردد والهزيمة فى مصر فكانوا يقولون " سعد باشا قال مافيش فايدة " يقصدون ان سعد قال ان لافائدة من الكفاح لأجل الحرية " ولأجل الاستقلال ويريدون تثبيط الهمم وإضعاف مقاومة الشعب ودفعه الى اليأس والقنوط والواقع ان سعد لم يفقد الامل الى أخر يوم فى حياته وكان يؤمن بحتميه جلاء الانجليز وانتصار الشعب عليهم وعلى الملك .

كانت صفية زغلول نعم الزوجة وتقوم بنفسها بكل احتياجات زوجها ... ففى اليوم التاسع لتأليفه الوزارة عاد سعد من اجتماع مجلس الوزراء وصعد الى غرفة نومه فى الطابق العلوى من بيت الامة وبدأ يخلع ملابسه فى عصبية وزوجته صفية تساعده فى ارتداء البيجاما والروب ، وبحث سعد عن الطاقية التى يضعها على رأسه فلم يجدها ، واضطربت صفية وهى تبحث عن الطاقية فقالت وهى تبتسم :-

انني اضطرب حينما اراك غاضباً .

قال سعد : انني افكر فى الاستقالة من رئاسة الوزراء .

قالت صفية فى دهشة : الاستقالة ؟ انه لم يمض عليك فى رئاسة الوزارة ثمانية ايام فقط . انك الفت الوزارة فى اول فبراير ونحن اليوم فى ٩ فبراير !

وكان من حق صفية زغلول ان تدهش ، فان والدها مصطفى فهمى باشا بقى رئيسا للوزارة ١٣ سنة متوالية ، وهاهو زوجها يريد ان يستقيل من رئاسة الوزراة بعد ثمانية ايام فقط .

وقال سعد انني دعوت مجلس الوزراء للانعقاد ظهر اليوم ، وقلت للوزراء ان الملك فؤاد يتمسك كل التمسك بالانفراد بتعيين اعضاء مجلس الشيوخ ، وانا ناقشت الملك فلم يقتنع بحق مجلس الوزراء فى هذا التعيين باعتباره المنتخب من الشعب ، وسألت الوزراء هل يقبلون رأى الملك أم يرفضون رأى الملك .

وقال الوزراء بالاجماع انهم يرفضون رأى الملك .. ثم استمر سعد يقول وكل الوزراء ايدونى فى أن نتحدى الملك ونستقيل . ماعدا واصف غالى وزير الخارجية

الذى قال انه لايوافق على الاستقالة ، لأننا جئنا للمفاوضات ، لا للوزارة بذاتها فاستقالتنا الآن معناها محاربة الملك لا محاربة الانجليز . والاستقالة لها عواقب وخيمة لانها تكون ثورة ضد الملك .

وصاح بعض الوزراء الشبان : نحن على استعداد ان نعلن الحرب على الانجليز والملك معاً

وقال سعد : لقد قلت لانريد ان نغضب الملك ولا أن نتهاون فى المحافظة على الدستور .

قالت صفية : ان الملك لم يصبر عليك حتى ينتهى شهر العسل

قال سعد ساخراً : انا لم اشعر بشهر العسل هذا .. لقد بدأت الخناقة فى ليلة الزفاف .

وكثيراً ماكان يقول لأسرته وهو يتناول الطعام ان زوجته صفية كانت تعارض دائما ان يتولى رئاسة الوزارة وكان من رأيها ان الوزارة اصغر منى وان مقعد رئيس الحكومة اصغر كثيراً من مقعد زعيم الامة . رئيس الحكومة يعينه رجل واحد ولكن زعيم الامة يختاره الشعب بأسره .. وكانت تقول له :-

" أخشى ياسعد ان تسقطك رئاسة الحكومة فى عين الشعب .. عندما يتوهم انك انتقلت من معسكر الامة الى معسكر الحاكم " .

وذات يوم جلس سعد الى المائدة فلاحظت صفية انه لايأكل فالحت عليه ان يذكر سبب رفضه للطعام فروى لها قصة انتحار صديقه احمد على حلمى باشا وزير الزراعة السابق بسبب ديون تراكمت عليه وقد حزن سعد باشا كثيراً على صديقه لانه لم يخطره ولما علم ان الوزير قبل انتحاره بثلاثة ايام ارسل خطابا الى سعد يخطره فيها بوضعه ولكن سعد لم يرد عليه والواقع ان سعد لم يتسلم الخطاب اصلاً فطلب من السكرتير ان يبحث الامر على الفور واتضح ان احد السكرتارية هو الذى فض الخطاب ووجده بتوقيع شخص اسمه احمد حلمى يقول انه ينوى الانتحار ولم يذكر انه باشا ولا أنه وزير زراعة سابق ولهذا لم يعرضه على دولتكم .

واستشاط سعد غضباً وقال :-

" هل معنى هذا ان اترك مصرياً ينتحر لانه لييس باشا ولا وزيرا سابقاً ... كل خطاب يصل من اى مصرى يهدد فيه الانتحار يجب ان يعرض على سواء كان صاحبه وزيراً او نكرة " .

لقد كانت صفية زغلول سعيدة بان زوجها ترك الوزارة فى أعقاب حادثة السردار لانها اعتبرت توليه الحكم لعنة حلت به وانه نزل من مقامه الشعبى السامى الى هوان الرئاسة التافه . كان يقود أمة فاصبح موظفاً عند الملك وكانت تقول انه مكث فى الحكم عشرة شهور فقط فهرم وشاخ وازدادت فى وجهه التجاعيد وبدا عمره كأنه كبر عشر سنوات فى عشر شهور .. خطواته تثاقلت فى حركاتها .. قامته المرتفعة الشامخة انحنت قليلاً صوته اصبح متقطعاً متهدجاً وكأنه يتنفس بصعوبة ، وكان سعد يشاركها فى سخريتها بمنصب رئيس الوزراء وكما يقول مصطفى أمين فى كتابه من عشرة لعشرين (ص ٤٢) "-

" هذه المظاهر الفارغة .. هذه الاوسمة الوهاجة التى تشك صدره كالدبابيس . هذه البدلة الموشاه بالقصب التى تكاد تخنقه ، هذا السيف الذهبى الذى يتدلى من حزامه وكأنه يهدد بقطع الرؤوس ، هو رجل الشارع الذى لايصلح لجو النصر ... هو مواطن يجد الهواء الطلق عند السفح ويجد الهواء المكتوم على قمة المناصب العالية ، ويعترف انه عالم فى لغة مخاطبة الجماهير ، وجاهل فى لغة مخاطبة الملوك .

الملكة نازلى .. وسعد زغلول

كانت الملكة نازلى لها ميول وفدية وتحب سعد زغلول وكانت فى بعض الاحيان تعرف مايدور فى القصر من مؤامرات تدبر ناحية سعد وقد قامت الملكة نازلى فى أوائل شهر يوليه سنة ١٩٢٥ بارسال شابة محجبة ترتدى السواد الى صفية زغلول لتخطرها بشئ مهم يهم سعد باشا وكانت الساعة الحادية عشر مساء عندما وصلت هذه الشابة التى كانت تدعى فتحية ابو أصبع الى بيت الامة وصممت ان تقابل صفية هانم لانها تحمل رسالة هامة وعاجلة اليها من الملكة نازلى وكانت فتحية تعمل وصيفة للملكة وهبطت صفية الى الطابق الاول واستقبلت الفتاة التى قالت لأم المصريين :-

" ان الملك قابل المندوب السامى البريطانى فى يوم ٢٣ يونيو ١٩٢٥واتفقا على ضرورة قتل سعد زغلول ادبيا وتلفيق التهم ضده واتهامه بانه المحرض على قتل السردار واسقاطه فى الانتخابات القادمة وان الملكة نازلى طالما نصحت الملك بان هذه السياسة ليست فى مصلحته فهددها الملك بالطلاق اذا فتحت فمها مرة

اخرى وكررت مثل هذا الكلام وذكرت ان حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى بالنيابة هو الذى يفسد الملك وهو الذى يحرضه ضد سعد .

وقالت صفية للشابة انها تفضل ان تبلغ رسالة الملكة الى سعد شخصياً وانه لم ينم بعد وانما هو جالس الى مكتبه بالطابق العلوى وانها ستصعد لكى تستأذنه وصعدت ام المصريين ثم دعت فتحية ابو اصبع لمقابلة سعد وابلغته رسالة الملكة بنفس التفاصيل تقريباً وكانت الوصيفة مضطربة وهى تبلغ الرسالة لسعد ولكنه لاطفها وقال لها :-

لاتخافى ان الملك فؤاد لم يضع جاسوساً تحت الكرسى فقالت له الجدران لها آذان فضحك سعد وقال : الجدران عندكم وليس عندنا ثم طلب منها ان تشكر جلالة الملكة على رسالتها وعلى انها فعلت ما فيه مصلحة البلد ومصلحة العرش.

وقال سعد لصفية انه لايتصور ان الملك فؤاد يهدد نازلى بالطلاق لانها نصحته نصيحة فى مصلحته وانه يتصور انها تتهم حسن نشأت بتدبير المقابلات الذاتية للملك .

وكان سعد يؤمن بالاحلام ... فجاءه عبد الفتاح رجائى بك عضو مجلس الشيوخ ليقول له انه علم عن قبطى يدعى معوض من ذوى الاحلام الصادقة رأى فى المنام ان الملك فؤاد عارياً تماماً وانه حضر الى بيت سعد زغلول فطرده وقال عبد الفتاح بك لسعد ان الملك فؤاد سوف ينتهى امره فى خلال ثلاثة شهور وسوف يخلفه شقيقه الامير ابراهيم حلمى حيث سوف يمكث ستة شهور ثم يجئ الخديو عباس حيث يقتل وقال له ان هذه أنباء الغيب وبعد ذلك يجئ لسعد نائب شاب مقرب الى سعد زغلول وهو عبد الرحمن عزام الذى اصبح اول امين للجامعة العربية فيما بعد ، ويقول له ان رجلاً من الصالحين حدد اربعين يوماً لنزول الملك ولم يبق من هذه المدة إلا قليل من الايام ، ثم يجئ ثروت ثابت ويقول له مثل هذا الكلام ثم يجئ حسين هلال بك عضو الوفد المصرى ويقول له ان رجلاً مشهورا بالصلاح تنبأ بنهاية الملك .

ويفاجأ سعد بزوجته صفية تقول له فى نفس اليوم بانها رأت حلماً جميلا اهم ما فيه انها سمعت من يقول لها فى الحلم " ان سعد منصور باذن الله " ثم يرى سعد فى الحلم بعد يوم الملك فؤاد وقد ركب معه فى عجلة اشبه بطارة واسعة تدور من داخلها .

وبعد ايام قليلة جاءت الانباء بأن عدوه الاول اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى قد طرد من منصبه وان الملك فؤاد عندما سمع النبأ أغمى عليه من هول الصدمة .

وابتسم سعد وقال :

اليوم مات الملك الحقيقى .

صفية ومواقفها مع زوجها :

ورغم حنانها وحبها وغرامها لسعد زغلول ووقوفها بجانبه فى كل محنة إلا انها كانت صريحة مع زوجها ولم تقف مكتوفة الايدى امام بعض تصرفاته فقد عاتبت صفية زغلول زوجها على موقفين خطيرين هما :-

موقفه بالنسبة لاحياء قانون المطبوعات الذى عرض على مجلس الوزراء وقد رفض سعد بإصرار الموافقة على عودة القانون ثم عاد فوافق عليه وعلى ما به من قيود بعد ادخال تعديلات ضعيفة عليه .

حزنت صفية زغلول ان يكون سعد زغلول احد مؤيدى احياء قانون المطبوعات من جديد هذا القانون المقيد للحريات وقالت له إن هذا الموقف لايتفق بما عليه شخصيته وبما يدعو اليه من حرية القلم (١)

أما الموقف الثانى الذى عابته صفية زغلول على زوجها فهو تبنيه عرض امر مد امتياز شركة قناة السويس بتكليف الوزارة له ان يكون ممثلاً للحكومة امام الجمعية العمومية (كان امتياز شركة قناة السويس ٩٩ سنة يبدأ منذ افتتاحها سنة ١٨٦٩ وينتهى فى سنة ١٩٦٨ حيث ان الاستعمار والشركة أرادا مد الامتياز خمسين سنة اخرى تنتهى سنة ٢٠٠٨ وقد قبل سعد ان يكون ممثلاً للحكومة ولكن بشرط ان يكون تصويت الجمعية ملزماً للحكومة ودافع سعد بحماس شديد عن المشروع لكنه فوجئ بهزيمة ساحقة ، فبرغم ماقدمه من حجج صوتت الجمعية العمومية ضد المشروع بالاجماع عدا عضو واحد والوزراء وكانت هزيمة

(١) يقول عباس محمود العقاد فى كتابه سيرة وتحية الذى كتبه عن سعد زغلول :-
سألت سعدا فى مسألة قانون المطبوعات فقال له سعد : اننى من وجهة نظر المبدأ ارى أن تقييد الحرية غير جائز ، أما الكتابة التى كانت حاصلة فعلاً فى تلك الايام فمن غير الجائز فى نظرى وفى نظر غيرى تركها تتدهور الى الهاوية التى كانت تتدفع بها ..".
ولاشك ان تلك سقطة من سقطات سعد زغلول .. عابتها عليه زوجته التى كانت مؤمنة بحرية الشعب الى ابعد حد دون مراعاة لأى خواطر أو علل .

سعد زغلول فى الجمعية العمومية فى موضوع مد امتياز قناة السويس أخطر هزيمة منيت بها الحكومة طوال الحياة النيابية لان الوزارة وقفت معزولة تماماً ولم يجد دفاع سعد زغلول عنها .. لقد فرحت صفية لهزيمة سعد وأكدت له انه مخطئ من البداية .. وليس له ان يحزن فإن ذلك لصالح مصر والمصريين .. ومن هنا يمكن القول انها ادت دوراً مهماً فى حياة زوجها فى الشأن العام .

ووقفت بجانبه فى كل المواقف الصعبة التى عانى منها :-

مر زوجها سعد زغلول بالكثير من المحن نذكر منها محنة الشك فى وطنيته وقت ان تولى وزارة المعارف ثم وزارة الحقانية والشك فى وجود علاقة تربطه بالمعتمد البريطانى اللورد كرومر .. محنة اتهامه بالعلمانية وبانه يريد ان يبعد الدين عن الدولة ومن ثم فصم عرى العلاقة الاسلامية مع الدولة العثمانية لانه كان مؤمناً بان الدين للديان والوطن للجميع ، ومحنة النفى ثلاث مرات أولها الى مالطة والثانية الى سيشل والثالثة الى جبل طارق ومحنة الانقسام الذى حدث بينه وبين رفاقه فى باريس وانشقاق الكثير من اصدقائه عنه وكان سعد صلباً فى تحديد مطالب المصريين بينما كان رفاقه يطالبون بسياسة الخطوة خطوة . ثم محنة مواجهته للملك فؤاد واصراره على التمسك بالمبدأ القائل ان الملك يملك ولايحكم إلا من خلال وزرائه والوزراء ليسوا مسئولين أمامه وإنما أمام البرلمان ثم هناك محنة الضعاف من اصحاب المصلحة والذين ربطوا مصالحهم ببقاء الاحتلال البريطانى فى مصر .. كل هذه محن عاشها وتعايش معها سعد زغلول ووجد من صفية زوجته خير معين له فى اجتياز الكثير منها .

ولعل أخطر المحن التى مر بها سعد تآمر السراى ضده والانجليز الذين رغبوا فى الاطاحة بوزارته الاولى والاخيرة بعد عشرة اشهر وبضعة ايام .. ثم اصرارهم ألا يتولى المنصب مرة اخرى .. هذا كله الى جانب محنة المرض التى المت به والتى اودت بحياته فى ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧ .

هذه المحن لو صادفت شاباً فى العشرين أو الثلاثين لقضت عليه ولكن سعد زغلول واجه معظمها وهو فى سن الشيخوخة .. ومع ذلك صمد امام الاعاصير ورغم معاناته إلا انه لم يحن راسه قط لا للملك ولا للانجليز .. وكان سهلاً عليه ان يعيش حياة الدعة والرفاهية عندما عرض عليه الانجليز الملك قبل نفيه الى

سيشل ورفض وكان يمكن ان يحنى راسه بعد عاصفة اغتيال السير لى ستاك فى نوفمبر ١٩٢٤ وان يخلى السودان وان يقبل انذار اللنبى ولكنه رفض...
ورأى فى خضوعه اكبر خيانة لوطنيته .. وفى كل تلك المواقف كانت تقف معه قلة من المخلصين له والمؤمنين بزعامته وعلى رأسهم ام المصريين زوجته الحبيبة صفية هانم زغلول.

ووقفت وحدها بعد ان تركها المحيطون به لحظة موته احتراماً لما بينها وبين الزعيم وسمعها مصطفى امين وهى تبكى تقول لجثمان سعد الراقد على السرير:-

الومك واعتب عليك ، كثيراً مانهيتك عن العمل والكتابة اشفاقا على نفسى وعليك ولكنك كنت تكتب وتعمل وتجاهد وتكافح حتى آخر لحظة وكنت تجيبنى انا مسئول وورائى ناس ؟ الم يكتب لك وانت فى مرضك الاخير صاحب حاجة فاضطررت ان تتحامل على نفسك وترد عليه .. ماكان اغنانى واغناك عن هذا الذى قضيت على نفسك ومأاشد عتبى عليك ووجيعتى لاصرارك على العمل رغم نصيحة الاطباء ، يا لمصابى / لقد قضينا ثلاثين سنة كاملة كنت فيها البركان تكتم عن مايكدر حرصاً على احساسى فلا اعرفه إلا بعد انقضاء امره .. ثم كان لى مجدك .. وكان لى عزك .. رفعنى الناس برفعتك وفضلك . ومحبتهم اياك ومحبتك اياهم ، وكم تمنيت ان يكون لنا ابن يطالعنا ونطالعه فكان جوابك انه ليس لك ابن ولكن لك اربعة عشر مليوناً من الابناء ولبكاء هؤلاء الابناء اليوم عليك انا اشد جزعا واحر بكاء .. ما اشد شغفى عليهم وبلواى بحزنهم .. وها أنت تركتنى وتترك ابناءك ولاتترك من ورائك وصية لى ولا لهم .. ولم تكلم فى شأننا احد .. فهل اعتب عليك لهذا ايضاً ؟

كنت تكره النحيب حتى منعته لما مات ابننا سعيد زغلول (تقصد ابن اخته) ولما تأثرت اختك قلت لها بلسانك " انى اتفقت واياك أينا سبق من الموت صاحبه كان حاله كحال ابننا وشد مايجزننى ان البس عليك السواد وقد كنت تكرهه ولكن مالى الى ذلك من يد وليس امره بيدى .

اننى اعدك ياسعد انى ساصنع مابقيت ايامى ماصنعت انت طوال ايامك تلك حتى اخر نقطة من دمى .

لقد سمع مصطفى امين هذه الكلمات الواحية من شفتى صفية . كل كلمة

تنزف دموعاً وخرج من الغرفة واحس ان هذا الكلام يجب ان يسمعه الناس وجلس وكتبه ونزل الى السلاملك وراى امامه الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة واعطاه الكلمة بعنوان " فى غرفة الموت " واعجب بها هيكل واصلح فيها بعض العبارات ونشرها فى جريدة السياسة يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٧ .

نداء أم المصريين للشعب المصرى فى أعقاب وفاة سعد زغلول :-

اصدرت صفية زغلول هذا النداء من بيت الامة فى ٢٩ صفر سنة١٣٤٦ الموافق ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٧ أى بعد أربعة ايام من وفاة سعد زغلول وجاء على النحو التالى :

أبنائى وابناء وطنى

" لوكان سعد الذى اختاره الله لجواره سعدى وحدى لشكرت لكم جميل العزاء فى فقده ، وحسن المواساة فى خطبه ولكنه كان سعد مصر وابنها وقائدها وامنيتها . المصاب فيه مصابكم والبكاء عليه بكاؤكم ، فان كان لى من حق الشكر نصيب استقل به ، فإنما يكون ذلك بقدر ماناالنى من بره وعطفه ومن شرف اسمه وقربه ، وبقدر مالقيت من التشريف والتكريم منكم ومن حكومة الشعب لتلك الصلة التى جمعت بينى وبينه ، فان اذنتم له بهذا النصيب فتقبلوا منى شكرا يضيق القلب بكتمانه ويعجز اللسان عن بيانه .

ابنائى وابناء وطنى

ما كان سعد إلا فكرة سامية وهى بحمد الله باقية ذاكية ، فلئن غاب عنا شخصه المحبوب فقد بقيت لنا ذكراه الغالية " الذكرى تنفع المؤمنين " ولئن برح بنا الألم لفراقه لنتخذن من هذا الألم حمية وبأسا ، ولنجعلن منه حاجزاً وحصناً حصيناً ، فإنما الألم النبيل قوة تذكى العزائم ولا تخمدها وتستحث الهمم ولا توهنا ، ولئن حق له علينا الوفاء فقد وجب علينا أن لا نهجر الأمل فهو، وألا نكون إلا عند حُسن ظنه بنا ورجائه فينا ، نتم عمله ، ونقيم فوق أساسه ، ونذكر مصر ، ولا نذكر شيئا غير مصر ، فهى مبدأنا ومنتهانا ، وإليها وإلى الله مرجعنا ومعادنا ، ويومئذ نجد سعداً بيننا ، بل نجد سعداً فى كل عامل لوطنه وكل غيور على حقوق بلاده ، فإن سعداً الذى نحبه ونصون عهده هو القضية التى نسهر عليها وهو الحرية التى ننشدها وهو الاستقلال الذى نحيا له وعليه نموت .

ان مصر تنظر اليكم .. فولوها نظرة وأصغوا اليها بسمعكم وانها لن تضيع عندكم دعاء فلا يكن نصيبها بعد اليوم منكم إلا كنصيبها فى كل يوم من ايامه .

لقد مات سعد فلتحى مصر ، ومات زعيم الامة فلتحى الامة ، ومات رمز الآمال الوطنية فلتحى الآمال الوطنية ، ولنحمل نحن اللواء ، والله الذى يكفل مصر بعنايته الوافية هو المسؤول ان يلهمنا الصواب ويعوض هذه الامة خير

العوض ويفتح له باب رحمته ونصره وانه خير مسئول وهو خير مجيب " .
بيت الامة فى ٢٩ صفر سنة 27١٣٤٦ – أغسطس سنة ١٩٢٧ .

صفية زغلول

كانت تتمنى من الدولة رفع سعد باشا الى مصاف العظماء تكريما لرجل قضى حياته فى خدمة مصر وبفضل الجهود العظيمة التى تكاد تكون فوق طوق البشر حققت مصر امنيتها الكبرى فى الاستقلال ، فبعد ان كانت محكومة وتابعة اصبحت دولة مستقلة ذات سيادة لها شأن بين الدول وقديما قالوا ان بناة الأمم والشعوب هم الذين يخرجون من صلبها ويرقون سلم الحياة منها درجة درجة الى الذروة والقمة .

وقالت حبذا لو إنتهز أولوا الحل والعقد فرصة شروع الحكومة فى إنشاء مدينة جديدة فى البر الايمن من قنال السويس لتسميتها باسم سعد باشا فتكون " بور سعيد فى البر الايسر وبورسعد فى البر الايمن .. وختمت قولها بـ " طوبى لمن حقق هذه الامنية التى تصادف فى قلوب المصريين اعظم ابتهاج وتقابل باعظم الشكران (١) ونادت ام المصريين لماذا لاننشئ متحفاً لأثار عظماء مصر .

فى مصر احدى عشر متحفاً هى المتحف المصرى والمتحف العربى والمتحف القبطى والمتحف الحربى والمتحف الزراعى والمتحف الصحى والمتحف الجيولوجى والمتحف الجغرافى ومتحف الفن الحديث ومتحف السكة الحديد ومتحف البريد .

وليس من بين هذه المتاحف متحف يضم آثار عظماء مصر فى حين انه يجب للذكرى والتاريخ تاسيس متحف يجمع آثار هؤلاء العظماء فيبدأ مثلاً بتخصيص غرفة او غرفتين فى دار الكتب تجمع فيها أو فيهما آثار الرجال الذين تجلت عظمتهم فى جلائل اعمالهم ليكون هذا المتحف مرصداً للكتاب والمؤرخين وذكرى لشباب اليوم الذين هم رجال الغد .. وتواصل صفية قولها :-

لا أعنى بهم الرجال الذين خدموا مصر واستحقوا تقدير الوطن ، سواء فى ذلك رجال السياسة والسيف والعلم والفن والادب وكذلك رجال المال الذين ضحوا بجانب كبير منه فى سبيل مصر والمصريين .

(١) كانت تقول ان سعد خرج من صلب الامة ، كما يخرج الافذاذ النوابغ ، فإذا ذكر جورج واشنطن وابراهام لنكولن ونابليون بونابرت واوليفر كروموبل وكل نابغة فى الامم ذكر بعد اليوم معهم سعد .

كانت تقول :

لما لانجمع مخطوطات الرجال الذين بايعوا محمد على بالولاية على مصر أمثال السيد عمر مكرم ، والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى والشيخ خليل البكرى والشيخ سليمان الفيومى والذين عاونوا محمد على فى سياسته وفى ماليته وفى حروبه : أمثال سليمان باشا واحمد المانكلى باشا واحمد الدوحلى باشا وحسن الاسكندرانى باشا وابراهيم يكن باشا وسليم فتحى باشا .

وطالبت بضرورة حفظ مايوجد من المخطوطات والاثار لرجال السياسة الذين نبغوا فى عهود اسماعيل وتوفيق وعباس ، وكذلك اثار رجال ثورة سنة ١٨٨٢ امثال احمد عرابى والبارودى ومحمد الروبى وعبد العال حلمى وعلى فهمى . وكذلك رجال ثورة ١٩١٩ أمثال سعد باشا وعلى شعراوى باشا وعبدالعزيز فهمى ومحمود سليمان وابراهيم سعيد ومرقص حنا وحمد الباسل وويصا واصف واثار ومخطوطات كبار رجال السياسة امثال سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وعدلى يكن وحسين رشدى وتوفيق نسيم ، وعبد الخالق ثروت وكبار رجال العلم امثال محمود الفلكى وعلى مبارك ورفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده وقاسم امين وكبار الشعراء امثال شوقى وحافظ وخليل مطران وحفنى ناصف ، واسماعيل صبري ورجال الادب امثال السيد توفيق البكرى وابراهيم المويلحى واسماعيل اباظة وأحمد زكي باشا ورجال الصحافة امثال سليم تقلا وعبد الله النديم والشيخ على يوسف ويعقوب صروف وجورجى زيدان وبشارة تقلا ...

ولقد تحققت معظم امانى ام المصريين فيما طرحته من أفكار حول الخالدين فى تاريخ الوطن وذلك بفضل ثورة ٢٣ يوليو والعهود التى تلتها والتى صممت على ان تضم سلسلة كفاح الرواد المصريين متاحف لكل المواطنين يستشعرون من خلالها الدور العظيم الذى قاموا به والتضحيات التى قدموها فى سبيل رفعة هذا الوطن .

ولكن مايزال ينقصنا متحف جامع شامل للذكرى والتاريخ يضم تاريخ مصر الحديث اذا ما اعتبرنا ان المتحف المصرى يضم التاريخ الفرعونى والمتحف الرومانى واليونانى موجود كما ان المتحف القبطى حقيقة واقعة ... ولكن لازالت اثار المصريين المحدثين فى حاجة الى مكان واحد يجمع مخطوطاتهم ومذكراتهم ووثائقهم وصورهم ولتقسم الى الاتى :-

" السياسيون والزعماء الوطنيون " " الادباء والمفكرون " الشعراء " الفنانون بانواعهم من ابطال سينما ومسرح ونحت وموسيقى " الاقتصاديون العظماء فى تاريخ مصر الذين دفعوا بالاقتصاد المصرى للأمام واسهموا فى رفع مستوى المعيشة للشعب فالأمم المتحضرة هى التى تعمل على مكافأة المخلصين المجاهدين من بين ابنائها الذين عملوا على رفعة شأنها وناضلوا من أجل شعبها .

كانت تقول لمن حولها : تعلموا كيف تحبون فالحب يزيل صدأ النفوس ، يحيى الامل ، يبعث الحياة ، الحب هو الجمال الحقيقى والله محبة .

وكانت دائماً تردد ان العدل الالهى لايغفل اى شئ .. اعطى كل انسان بمقدار من منحة الجمال حرم فيه المال .. واذا وهبه الجمال والمال منع عنه السعادة .. فالله يقسم نعمه على العباد بحيث فى النهاية يتساوون .

كانت تقول لمن حولها اهتموا بالتعليم .. فالتعليم قيمة كبيرة تصنع الدول المتقدمة وتهيئ لها الازدهار وهى لغة التطوير والنمو .

الفصل السادس
أم المصريين فى وداع الزعيم

كانت صفية زغلول هى حب سعد الأخير وكان سعد بالنسبة لها هو حبها الأول والأخير كانت مثقفة .. تحب القراءة وتتقن ثلاث لغات إلى جانب العربية فهى تجيد الفرنسية والتركية والإنجليزية .. ورغم أنها لم تنجب .. إلا أن مشاعر الأمومة كانت توجه إلى كل مصرى ومصرية . وفى الشأن العائلى الخاص كانت تعتبر أبناء أخت سعد زغلول وأبناء أخوته بمثابة أبناء لها .

وعلى الرغم من الألقاب المختلفة التى خلعها المصريون وغير المصريين على سعد باشا وكان من أبلغها اللقب الذى أختارته الأديبة " مى زيادة " ب " جبار الوادى " إلا أنها -أى صفية زغلول -كانت تفضل اللقب الذى اختاره له الصحفى النمسوى " فلجانج ميشيل "وهو " ملك الفلاحين غير المتوج " لما يتسم به من موضوعية ...

برغم كل أحزان المصرين على سعد باشا فى أزماته وخلال اعتقالاته ونفيه إلى الخارج إلا أن زوجته كانت أكثر الثكالى .. وأعظمهم حزناً .. لأنها عاشت معه أروع سنوات حياته ..

ولم تفقد مصر بوفاته رئيس مجلس نوابها .. ورئيس أول وزارة شعبية فى ظل انتخابات ديمقراطية .. وأمل الجماهير نسائها ورجالها .. بل فقدت مصر أكثر من ذلك لأنها بموته حملت إلى القبر الذكاء المتوقد والجلد العظيم والتفانى فى حب الوطن والمقدرة فى معرفة أخلاق الرجال .. وبهذه الصفات جمع قلوب الأمة حوله وألف بينها وجعل منها كتلة قوية تنتمى إلى الوفد ليس بصفته حزباً سياسياً ولكن بصفته طلائع أبناء الوطن فى الدفاع عن حريته والسعى لجلاء المستعمر .

وتقدم الساعات الأخيرة من حياة سعد باشا قصة حزينة للرجل الذى قهر الحياة فهزمه الموت فقد فاجأه قضاء الله مساء الساعة العاشرة إلا ربع بعد مرض لم يتجاوز ثمانية أيام وأعلنت وفاته فى الساعة الثامنة إلا ثلث من صباح

يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ وخلال الثمانى أيام عانى سعد أشد المعاناة ... البداية كانت التهاب فى جلد الأذن تحول إلى حُمرة وبحكم أن ميكروب هذا المرض ينتقل بسرعة من أجزاء الجسم ما يصعب معه التحكم فيه فقد بدأ عليه علامات غير مريحه من ألم وقئ تحول إلى التهاب رئوى ووصلت درجة الحرارة ارتفاعها إلى درجة أن لم يعرف الأطباء أنها وصلت إلى ٤١ درجة وسبعة شرطات ما أدى إلى تسمم الدم وندرة البول حتى جاءت اللحظة الأخيرة ... والغريب أن قلبه حتى اللحظات الأخيرة كان فى أحسن حالاته .

وكانت صفية زغلول خلال الأيام الثمانية المذكورة تعانى أكثر من زوجها ولكن فى صمت وحزن وكانت تلازمه هى وشقيقها وإبنة شقيقها فى تناوب مستمر لأن سعد رفض أن يعالج فى أى مستشفى وظل فى بيت الأمة وكانت من المرات النادرة التى يتولى مجلس الوزراء تنظيم جنازة أحد زعماء مصر وبمشاركة زوجته السيدة صفية زغلول تقرر الآتى :-

١) أن يكون يوم الأربعاء ٢٤ أغسطس عطلة رسمية لدواوين الحكومة .
٢) أن تشيع الجنازة باحتفال تشترك فيه الحكومة بوزرائها ووكلائهم وموظفيها .
٣) أن تشارك أورطة من الجيش تصحب الجثمان حتى لحظات الدفن .
٤) أن يحضر الشيوخ والنواب ورجال القضاء والنيابة الجنازة بالوشاحات الرسمية والأوسمة .
٥) أن يشارك المحامون بالأرواب وموظفوا الحكومة الكبار بالردنجوت .
٦) أن يُحمل الجثمان على عربة مدفع تجرها ستة جياد مطهمة تحيط بها كوكبة من البوليس .
٧) يرتب المشيعون طبقاً لمكانتهم .

غير أن ماحدث على أرض الواقع قلب كل هذه الترتيبات ، حيث كانت الكثافة البشرية من الشعب الذى خرج يودع زعيمه تفوق كل توقع ... إذ لم تكد تحين الساعة الثانية بعد الظهر بعد الصلاة على الجثمان حتى امتلأت كل شوارع القاهرة وغصت شرفات المنازل وأسطحها بعشرات الآلوف ، وأوصدت المحال

التجارية والمصارف الإفرنجية أعلنت الحداد وأغلقت أبوابها منكسة أعلامها ... وكان السقاءون يطوفون متطوعين بقربهم لسقى الجماهير .

بل لقد وصل الأمر بالجماهير أن حاولت أختطاف الجثمان من على عربة المدفع فى محاولات متكررة بلغت أربع ... فى ميدان الأزهر وأخرى عند البنك الأهلى وثالثة فى ميدان الأوبرا والرابعة فى شارع محمد على على مقربة من المدفن .

وصممت صفية زغلول أن يكون العزاء فى سرادق كبير ... أمام بيت الأمة والذى أمتلأ بكل فئات الشعب وشارك فى العزاء جميع الطبقات ، والأحزاب .

وما لفت الأنظار أسراب السيدات التى جئن لتعزية أم المصريين إلى درجة أنه قيل أن جميع سيدات العاصمة قصدت تلك الدار ... كما لفت الأنظار أيضاً مشاركة الجاليات الأجنبية فى العزاء .

والوحيد الذى لم يبد عليه الحزن كان الملك فؤاد والذى لم يصبر طويلاً بعد وفاة سعد حيث شد الرحال إلى فيشى قبل مضى أسبوعين على رحيل الزعيم ولم يخجل فؤاد أن تظهر صورته على الصفحة الأولى من الجرائد المصرية يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٧ حيث أرتسمت على وجهه ابتسامة عريضة .. كانت تعبر علناً عن فرحته بالتخلص من خصمه السياسى العنيد سعد باشا .

وكان المقربون من صفية زغلول يقرأون لها مانشرته الصحافة الأجنبية وبالذات البريطانية عن سعد والفراغ الذى سيتركه بعد وفاته على الساحة السياسية المصرية ... مؤكدة أنه كان زعيماً لا ينافس أحب الشعب وأخلص لقضيته ، وقد اتخذ مجلس الوزراء عدة قرارات لتخليد صوت الزعيم استجابة لمطالب الشعب المصرى نذكر منها :-

١) إقامة تمثال له بالعاصمة والآخر بالإسكندرية فى ميدانين من أهم ميادين المدينتين .

٢) شراء بيت الأمة للحكومة وضمه إلى الأملاك العمومية المخصصة للمنافع العامة بأسم بيت الأمة على أن يبقى حق السكن فيه لحرم المغفور له مدى الحياة .

٣) إنشاء مستشفى أو ملجأ فى العاصمة يطلق عليه سعد زغلول .

٤) شراء البيت الذى ولد فيه المرحوم ببلده إبيانه مركز فوة المديرية الغربية وقتئذ وضمها إلى الأملاك العمومية للدولة المخصصة للمنافع العامة .

٥) تشييد بناء المدفن فى بيت الأمة على نفقة الحكومة .

وكانت أم المصريين وراء كل ذلك التخليد .. مؤكدة لمن حولها أن مصر كلها هى سعد وأن مبادءه ومثله التى دافع عنها لن تموت بموته طالما هناك من يحمل الشعلة من بعده .

وكانت صفية زغلول حريصة على أن تذكر كل من يزورها بعد مماته بطلبات سعد حتى يحفظوها ويعملوا بها وكأنها كانت تحفظ كل الكلمات المأثورة عن سعد ونذكر بعض ماكانت تردده .

قالت لاتنسوا يا جماهير مصر الحبيبة ويا أبطال الحرية والمتمسكين بالجلاء أن سعد كان يقول :-

١) يجب أن يسقط من حساب الأمة هؤلاء الأشخاص الذين يعضدون كل حكومة ويشايعون كل دولة ويعبدون القوة فى أى مظهر ظهرت .

٢) إن الروح التى أودعها الله هذه الأمة لاتقوى على مغالبتها أحكام عرفية ولا استبداد مستبد ولاقوة قوى .. لأن الإستبداد إنما يقع على الأجسام أما الروح فهى بعيدة عن متناول يده .

٣) أفخر بأن أكون على رأس أمة حية مفكرة وهى منزلة لاينبغى لرجل أن يطلب لنفسه أعلى منها .

٤) يجب أن ننقاد للقانون وألا نعتبر الانقياد له مهانة ومذلة بل عزاً وشرفاً.

٥) الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة .

٦) خطتى مع الحكومة تأييدها إذا أصابت والتفاهم معها إذا أخطأت ومع الأمة فى البحث عن حاجاتها وتعرف رغباتها ومشاورة ذوى الرأى فيها ، ومع زملائى فى احترام آرائهم والتضامن معهم فى السعى لكل مافيه خير عام .

٧) لايفوتكم أن تحتجوا على أمر ترون أن فيه مخالفة للقانون مهما كان

صغيراً فى نظركم ، فربما كان لهذا الأمر الصغير علاقة فى المستقبل بأمر كبير فيتخذ من سكوتكم فى هذا حجة عليكم فى ذلك .

٨) أتقبل والسرور يملأ جوانحى أن أكون على رأس أمة لاتساق سوق الأنعام ولكنها تسير خلف المبادئ لا الأشخاص .

٩) لا أريد أن أكون موضع خوف بل موضع احترام .

١٠) إذا احترمنا أمراً للحكومة نحترمه لأنه نافع للأمة لا لأنه صادر من تلك القوة المسيطرة .

١١) كل شريعة تؤسس على فساد الأخلاق فهى شريعة باطلة .

١٢) كل أمر يقف فى طريق حريتنا لايصح أن نقبله مطلقاً مهما كان مصدره عالياً ومهما كان الآمر به .

١٣) الصحافة حرة تقول ماتشاء فى حدود القانون ، وتنتقد ماتريد . فليس من الرأى أن نسألها لم تنتقدنا ؟ بل الواجب أن نسأل أنفسنا لما نفعل ماتنتقدنا عليه .

١٤) إن كانت الحكومة تريد أن نكون فى صفها مدافعين عنها فما عليها إلا أن تتبع الحق والعدل وتحترم القانون .

١٥) نحن فى حاجة إلى العلم والأخلاق معاً لنبنى هذه الأمة .

١٦) الذى يلزمنا أن نفاخر به هو أعمالنا فى الحياة لا الشهادات التى فى أيدينا .

١٧) لايكفى أن يتخرج التلميذ من المدرسة لينال الثقة من الناس ، بل لابد أن يتعلم أيضاً فى مدرسة العالم لينال الثقة العامة التى يريدها .

كانت صفية تردد كل هذه الأقوال أمام زائريها وأمام مريدى سعد وكانت تقول لمن حولها . ياليت الحكام ومن بيدهم أمر هذه الأمة يعوا هذه الوصية .. فهى شاطئ الأمان لتحقيق مايتطلع إليه الوطن وفى علاقة الحاكم بالمحكوم .

وفاة أم المصريين

ماتت صفية زغلول بعد زوجها بنحو تسعة عشر عاماً وكانت حياتها كلها كفاح من أجل مصر ..

كان آخر عمل عام قامت به أم المصريين هى المشاركة بكتاب للجنة الاحتفال باحياء ذكرى المغفور له الدكتور محجوب ثابت وقد تفضلت عصمتها قبل انتقالها الى جوار ربها فبعثت الى حضرة السعادة الدكتور على إبراهيم باشا بصفته رئيساً للجنة الاحتفال كتابا هذا نصه :

" أدت اللجنة التى شرفتكم برئاستها جميل الوفاء للفقيد العزيز الدكتور محجوب ثابت وقد كان له مكانة خاصة عند المغفور له زعيم مصر العظيم سعد زغلول باشا ، علاوة على منزلته الخاصة فى قلوب مصر وابناء البلاد العربية والشرقية جميعا ، خصوصا السودان مسقط رأسه ، كان الفقيد الكريم معروفاً بدماثة الخلق وسعة الاطلاع وبعد النظر ووفائه لأهله وإخلاصه لمبدئه وتفانيه فى خدمة وطنه ، ووحدة وادى النيل ، وقد كان سعد العظيم يحدثنى عن هذا الفقيد الراحل ، وعن أدبه وعلمه ، وما أداه من خدمات مشكورة للطب والعلم والوطن العزيز ، وجهاده ودفاعه عن السودان فلئن سعيتم سعيكم المشكور فى سبيل تخليد ذكراه ، فإنما تخلدون حسن صنعه فى حياته فى سبيل خدمة هذا الوطن العزيز ، وتضحياته التى بذلها ، ولا شك أن أبناء مصر وسائر البلاد العربية والشرقية الشقيقة يشاركون سعادتكم هذا المسعى الحميد ، ويقدرون لكم ولحضرات اعضاء اللجنة خدماتكم خير تقدير ، وما اشتمل عليه ذلك السجل التذكارى الذى تعده اللجنة تخليداً لذكراه ، ليكون نبراسا تهتدى به فى سبيل خدمة البلاد على المنوال الذى سلكه الفقيد فى حياته " .

فلسعادتكم ولحضرات اعضاء اللجنة الموقرة التى تشرفت برئاستكم ، تقديرى وشكرى على هذا الصنيع الجليل الذى اضطلعتم به فى ظل رمز الوطنية وعلمها الخفاق جلالة الملك فاروق الأول " .

صفية زغلول

وكانت تعتبر نفسها جان دارك المصرية تراقب سير العمل السياسى والنضال من أجل الحركة الوطنية لاستكمال مشوار زوجها وهو الاستقلال التام وجلاء المستعمر .

عاشت فى الفترة من ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٤٦ مكرسة حياتها لدعم حزب الوفد وظلت ترقب ما يحدث بداخله من انسلاخات أو انشقاقات وهى تتألم ولكنها ظلت تفتح بيت الأمة لحزب الوفد واجتماعات مصطفى النحاس الذى كان يتخذ من مكتب سعد زغلول فى بيت الأمة ؟ ولما حدث الانشقاق الثالث فى حزب الوفد ونقصد به انشقاق أحمد ماهر ومحمود النقراشى وتشكيلهما حزب الهيئة السعدية ... وقفت صفية زغلول مع الهيئة السعدية ضد النحاس وأغلقت بيت الأمة أمام حزب الوفد .ولاشك أن البعض قال أن السبب فى ذلك يعود إلى رغبتها فى لعب دور سياسى فى عهد مصطفى النحاس ولكنه لم يسمح لها بحجة أن النساء لاعلاقة لهن بالسياسة ولكنه بعد زواجه من زينب الوكيل أصبحت هذه المقولة فى مهب الريح .. كما أن صفية زغلول كانت حزينة لأنها لم تدع لحضور توقيع اتفاقية الزعفران سنة ١٩٣٦ على أساس أنها وزوجها كانتا لهما اليد الطولى فى إجبار الإنجليز على توقيعها بعد نضال سعد المعروف من (١٩١٩-١٩٢٧) بالإضافة إلى أن موقفها من النحاس بعد ذلك الانشقاق الثالث كان بسبب عدم قدرته على السيطرة على حزب الوفد وإنسياقه لفكرة أصحاب القمصان الزرقاء حيث لأول مرة يجند النحاس كتائب من الشباب تلبس قمصان زرقاء مما خلع ثوب الديمقراطية الذى اشتهر به الحزب .. ولاشك أن كل هذه الآلام النفسية التى ألمت بها إلى جانب إهمال أجهزة الصحافة للكثير من أنبائها جعلها تعزف فى نهاية حياتها عن المشاركة العامة فى المجتمع مع أنه كان من الممكن الاستفادة من أفكارها .

وبدءاً من ٦ يناير سنة ١٩٤٦ داهمها المرض وبدأت تصاب بهبوط حاد وظلت تكتم آلامها ولم تخبر أحداً وكعادتها حكت رؤيا .. صادفت الحقيقة فقد قالت لفهيمة ثابت التى كانت بمثابة إبنتها " رأيت فيما يرى النائم أنى خرجت من منزلى لأزور إحدى الأميرات ورجعت فلم أجد سعد فسألت عنه الحاج أحمد

المنوفى الذى قابلنى فعرفنى أن الباشا منتظرنى على العشاء فى منزل الباشا الكبير(تقصد والدها مصطفى باشا فهمى) وعند الغروب ذهبت إلى منزل والدى فوجدت الأنوار ساطعة كأنه فرح والجميع ينتظروننى حول المائدة والدتى وإخواتى(المتوفيات) كل منهم بجانب زوجها (المتوفى) وسعد منفرد وبجانبه كرسى خال لمجلس فقالت والدتى صفية جاءت ياسعد . تأخرت علينا ياحبيبتى ومدت ذراعيها فضمتنى إليها وأسرتنى بكلمة لم أقولها لأحد ".

وهنا استعير ما جاء فى مذكرات السيدة فهيمة ثابت حول رثاء أم المصريين:-

" هلى لى أن أرثى حبيبتى بل حبيبة كل مصرى ومصرية من الوطنيين المخلصين التى استحقت لقب أم المصريين .

" أناجيك أيتها الروح الطاهرة وأنت فى عالم سماوى تحيط به السعادة الأبدية ، وأنت بجوار ربك الكريم تنعمين بين ملائكة الأطهار وعباده الصالحين...

أيتها الروح الخالدة العظيمة لقد كانت روحك الطاهرة القوية تلتهب غيرة على وطنك عندما رأيت الرجال يزج بهم فى السجون والمعتقلات وينفون إلى أقاصى البلاد . قمت بما لم يقم به أشد الأقوياء وأسفت " وحزنت" حزناً كثيراً على الضحايا البريئة فاشتعل فؤادك بنار الشفقة والحنان وأوقفت حياتك وأموالك للدفاع عن الوطن المحبوب ذلك الدفاع الحار الذى استرعى نظر الأجانب قبل المصريين فى ذلك الوقت وصبرت وناضلت بجانب سعد العظيم حتى آخر حياته ومن بعده شجعت الوفد وشاركته فى السراء والضراء حتى تكونت الجبهة وعقدت المعاهدة فظهرت سجاياك النبيلة فى إنكار الذات وقد أحببت أن تتعبى نفسك ليهنأ الناس فى هذا العالم الفانى ثم لتسترعى بعد ذلك فى العالم الباقى أفدت الأمة فائدة عظمى إذ أسست مجمعاً هو عماد رقيها فهرع كل فرد للتقرب منك ليستمع إلى دررك النفيسة مايصبره على بلواه أو ماتكون له برؤياك سلوى الحياة فغمرتك زائراتك وصديقاتك وقريباتك بما تحليت به من حسن التربية وجميل التهذيب إذ ترغرت على حميد الخصال وطيب الفعال وجميل السجايا فرفعت فى قصور الفضل ومحاسن الأخلاق .. بماذا أناجيك أيها الملاك الطاهر ".

تلك كانت مرثية رفيقتها فى المنفى لجبل طارق والتى عاشرتها أياماً وشهوراً وأقتربت منها وكانت تراقب حواراتها مع سعد زغلول وتسجل وجهة نظرها وحريتها فى طرح الأفكار

صعدت روحها الطاهرة فى ١٢ يناير سنة ١٩٤٦ .. فحزن عليها كل المصريين بلا إستثناء .. ولكن العزاء كان فى سيرتها وماخلقته من أعمال مجيدة .

وتواصل فهيمة ثابته فى مذكراتها رثائها بقولها :-

" لقد أتعبت نفسها حتى صعدت روحها يوم ١٢ يناير سنة ١٩٤٦ فألقى الينا الخبر المشئوم الذى ارتجفت له قلوبنا وتقوصت لهوله أركان سعادتنا وجرحت أفئدتنا وضاقت بنا الدنيا الغرورة على وسعها منا للأسف ولسوء حظ مصر وحظنا .

قد ذهبت أمنا العزيزة وخلفت أعمالاً مجيدة ، أراد الله مكافأتها بما تستحق فناداها إلى جواره ونقلها من دار الشقاء إلى جنة الفردوس والنعيم فأجلسها على عرش السعادة الأبدية هذه هى زعيمتك أيها المجتمع الوطنى النبيل فلو بكينا لفقدها بدل الدمع دماً لما وفيناها حقها فيا للخسارة لاتقدر ولاتعوض ؟

فى ذمة الله أيتها الروح المحبوبة ، فقد أجدبت بعدك الأرض سرورنا لأنك كنت لها النهر الراوى فى هذه الحياة والضياء الهادى الذى يستفيد منه كل من يغدو ويروح ، بل كنت نهاية سعادتنا ومحط رحالنا ودرة فى تاج فخرنا ، فقد نام قلبك وهدأ بإرادة الله وهذا مصير كل حى .

إن روحك الطاهرة تنظر إلينا فترانا سائرات كما كنت تحبين راسمات على صفحات قلوبنا تاريخاً مخلداً ومشيدات لك فى أفئدتنا حباً عميقاً واحتراماً عظيماً وسنذكرك نحن وأولادنا ، وأحفادنا وسيذكرك التاريخ بما حفظه لك من الذكر الحسن والفعل الجميل ، سيذكرك بأخلاقك وأدبك وسياستك وإيمانك وطهارتك تماماً كما تذكر كتب السيرة السيدة عائشة أم المؤمنين .

أيتها الروح الخالدة العظيمة .. لقد كنت نعم الزوجة الصفية الأمينة المخلصة الوفية .

لن ينسى الشعب المصرى آلامك التى كانت متجلية على وجهك الصبوح وعذابك فى سبيل مصر والمصريين .

كنت للمصريين نعم السلوى بعد رحيل سعد والآن وأنت بجواره يا أعز مخلوق لديه ..

فى ذمة الله أيتها الوطنية النبيله .. فلبيك مصر ولبيك أبناؤها وليسجل تاريخك الشريف فى سجلات الأفئدة وليكتب اسمك المحبوب على صفحات القلوب فأنت خير سيدة أنجبتها مصر .. وأول عاملة عملت على رفع شأن الوطن.

فسلام على روحك الطاهرة الخالدة .. سلام عليك أيتها الحبيبة معترفة بفضلك وعاجزة عن الإطناب فى شكرك .

سلام عليك من قلب مكلوم قد كساه الأسى رداء الحزن طول الحياة .

سلام عليك من قلب قد ذاب أسى لبعادك وألماً لفراقك .

والله أسأل أن يهبنا صبراً يساعدنا على احتمال مابقى من الحياة حتى نلحق بكم ونشهد أن لا حول ولاقوة إلا بالله .

ذلك كان رثاء إحدى المصريات لها وقد عبرت عما فى قلوب جميع المصريات ولاشك أن من يطلع على صحف تلك المرحلة الزمنية يجد الكثير من قصائد الرثاء ومقالات الوداع للشعب ورغم أن والدها كان تركياً فى التصرف والسلوك وإنجليزى الهوى .. وبلاجدال أحد الذين استند إليهم الاحتلال الإنجليزى .. والذى كان من المؤمنيين أن بقاء الإنجليز فى مصر لمصلحة مصر .. رغم كل ذلك فإن صفية هانم زغلول .. كانت مع الثورة قلباً وقالباً كانت مع حرية الوطن .. وكرهت الاستعمار وعبرت عن ذلك قولاً وعملاً .

فلقد كانت أول إمرأة مصرية اجتازت الخطوط الحمراء فشاركت زوجها فى رسم سياسته وكانت بحق الأمين الناصح والمستشار المحبب لقلوب الجماهير .. لكل ذلك لم يكن التاريخ مقصراً فى حقها عندما منحها لقب " أم المصريين" ، وتذكر فهيمة ثابت أن صفية هانم قالت مستكملة الحلم الذى كانت تقصه عليها قالت بعد جلوسى بجانب سعد الحمد لله ، لقد اجتمعنا وتم شملنا ثم صحوت

من نومى عند الفجر فصليت ودعوته تعالى أن يسهل على الساعة الأخيرة فى حياتى بدون وهن لأنى متأثرة جداً لعذاب مرضانا جميعاً ، فالله يشفيهم ويخفف عنهم .

فقالت لها فهيمه ثابت " يبعد عنك هذا الوهم فردت عليها صفية زغلول " ليس هذا وهماً ، ألم تسمعى المثل القائل .. كيف حال مريضكم قالوا أقوانا مات فالله يمنحنى حسن الختام " .

وفى ١٢ يناير تحقق الحلم وصعدت روحها إلى بارئها سنة ١٩٤٦ بعد ١٩ عاماً من فراق زوجها وموت زعيم الأمة سعد باشا زغلول .

الخاتمة

من يدرس التاريخ بوعى وبإدراك سليم يستطيع أن يتأكد أنه صناعة مشتركة بين الرجل والمرأة .. وأن كل الشعوب التى أهمل فيها شأن المرأة كانت تتعثر فى طريقها لأنها شبكة واحدة لا يمكن الفصل بين خيوطها .

وكل من قرأ بحياد تاريخ الاحتلال الانجليزى لمصر يجد أنه لم يدخل مصر لحماية الأرواح بل كان لمشكلة مالية أوقع مصر فيها المرابون والدائنون وكان لمصلحة حملة السندات والأسهم من الأوروبيين .

ورغم حسن النية من جانب بعض المؤرخين الأجانب أو المصريين فإن الوجود البريطانى فى مصر أرتكب من الفظائع ما لا يذكر التاريخ نظيرا له .

وتقول الآنسة أيمى جبسون وهى عضو فى حزب العمال البريطانى وتحمل درجة الماجستير فى التاريخ :

لطالما سمعنا معشر الانجليز أن العدل يسير أينما سار الحكم البريطانى وأن الظلم والاستبداد لا تقوم لهما قائمة أينما خفقت الراية البريطانية .. الى غير ذلك من الأقوال .. أننا ليخيل لنا أنها تمتدح أكثر من اللازم بنفسها –تلك السياسة –لعمرى لقد أصبحنا بمجرد ترديد أكذوبة من الأكاذيب نخدع حتى أنفسنا .

لقد طعن الجنود الانجليز نجلاء حركة وطنية كبرى نشبت فى مصر هى ثورة ١٩١٩ كانت تطالب بحكومة دستورية بدلا من حكومة اوتوقراطية الذى عرقل تقدم مصر العقلى والروحانى لعدة سنين " .

هذه شهادة امرأة إنجليزية درست بحياد وبعقلانية وموضوعية سنوات الاحتلال البريطانى لمصر حتى نشوب ثورة ١٩١٩ وتضع الرأى العام البريطانى أمام تصريحات ساستها المتناقضة حيث تذكر أن أحد رجال السياسة الانجليز قال :

"لن نتوقف أو نتحول حتى نضمن للشعوب الصغيرة استقلالها وحتى نضمن للعالم بأجمعه خلاصه النهائى من حكم القوة .

وقال الثانى :

"أننى أرى أن الحماية هى فى مصلحة مصر .. إن استقلالها يهدد مصالحنا

فى مصر والشرق .. لا تنسوا أننا أقوى رجال الأرض وعلى ذلك لا يستطيع أحد أن يتعرض لنا " .. فهذان التصريحان يتعارضان أليس كذلك ؟

ولكن لا عجب –تكمل الانجليزية –فأحدهما أعلن فى وقت كانت انجلترا فيه فى حاجة إلى المساعدة بل وفى حاجة شديدة إليها حتى من مصر نفسها التى لم تعترف بحمايتها أو تغدق عليها فضلاً عندما عقد النصر بألويتها والثانى أعلن بعد النصر بقطع النظر عن المبادئ التى ادعوا العمل لخدمتها وبقطع النظر عن الناس الذين ساعدوا على تحقيق هذه المبادئ .

لقد أثبت الشعب المصرى خلال حقبة الوجود الانجليزى أن انجلترا لا حق لها فى احتلال مصر إلا بقدر ما لألمانيا من الحق فى احتلال البلجيك .. لقد كان غزو مصر جريمة ضد الحرية ووصمة لإسم انجلترا لا يمكن محوها إلا برد الاستقلال التام لمصر .

أتيح للمرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ أن تشارك الرجل وأثبتت أن وطنيتها وطنية العقل كما هى وطنية الفؤاد فهى راسخة وعميقة ومستنيرة .

ولعل فى كتاب المستر "بلنت" الانجليزى عن صفات المصريين ما يجعلنا نفخر بما كتبه فقد قال :

ان المصريين شعب نزيه كأى شعب آخر فهم يتحلون بالفضائل التى تكفى لجعل أى شعب سعيد وفى رغد من العيش فهم قوم مجاملون يحترمون القانون متعففون بوجه عام عن المشروبات الكحولية وعن الملاذ الأخرى التى تميل لها الطبيعة البشرية .. لا يلعبون الميسر ولا يميلون للشغب يحبون عائلاتهم وأبنائهم فهم مثل صالح كأبناء وأباء رحماء بالشيوخ والأرامل .. لا تعصب عندهم مطلقاً سواء للجنس أو الدين .. ويختتم كلامه بقوله :

"ليس من السهل أن نجد شعباً أحق من هذا الشعب لإدراك الغاية الاقتصادية والسعادة الكبرى أما أمنيتهم السياسية فهى أن يعيشوا ويتركوا الغير يعيش وأن يسمح لهم بالعمل والاحتفاظ بثمرة مجهودهم وأن يبيعوا ويبتاعوا بلا عائق .

لقد تحملوا صنوف الاستبداد منذ قرون ولكن طباعهم الكريمة لم تتغير وهم لم يعتادوا دس الدسائس وتدبير المؤامرات لاستعباد الغير .

ويكفى أن نذكر أن الاحتلال من ميزانية مصر التى بلغت ٣٠ مليون جنيه سنويا كان لا ينفق على التعليم سوى ٣٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لتعليم أبناء قطر يبلغ

تعداد سكانه ١٤ مليون نسمة .. وخلال فترة تواجد الاحتلال وفى ١٩١٩ كانت لا توجد فى مصر مدرسة مجانية واحدة .

ولقد كان استغلال الانجليز لمصر واضحاً فقد كان فى مصر حتى ١٩١٩ عدد ١٧١١ موظف بريطانى يكلفون الخزانة المصرية نحو ٩٤١٧٨٩ جنيها سنويا أى نحو مليون جنيه تقريباً بينما سائر الموظفين المصريين وعددهم ١٠٨٠٤٠ أى نحو ٦٤ ضعف الموظفين الانجليز لا يكلفون الخزانة سوى ٦٤٣٢٨٩١ أى نحو ٦ ملايين بينما كان من المفروض بناء على المقارنة أن تصل أجورهم الى ١٤ ضعفاً لهذا الرقم وبعبارة أخرى أن هذا الجيش من الموظفين يؤكد أنه إذا كان مرتب الموظف المصرى جنيها واحداً كان مرتب الموظف الانجليزى تسعة جنيهات وسبعة شلنات فأنعم بهذه العدالة العجيبة.. لقد تميزت ثورة ١٩١٩ باتفاق واتحاد سائر العناصر التى يتكون منها الشعب المصرى وقد كبر حجم الراية المصرية فبعد أن كانت تحتوى على الهلال وثلاثة نجوم أصبحت تحمل صليباً فى الوسط .. وثبت أن سياسة فرق تسد التى أتبعها الانجليز فى مصر هى التى كانت تثير النعرة الدينية .

وقد مشى خلف الذين سقطوا ضحايا الرشاشات الانجليزية بخشوع يغلبهم الحزن والأسى ويجمعهم شعور الاحترام والعزة الوطنية الحاخامات والقساوسة وطلبة الجامع الأزهر وسائر المصريين الذين لهم عقيدة واحدة ودين واحد ألا وهو الوطن المقدس .

وكان الفضل فى دعم الوحدة الوطنية وتكريس مفهوم المواطنة يعود الى صفية زغلول .. وقد ظهرت مجموعة من الكتب خلال أحداث الثورة تتحدث عن الوحدة الوطنية نذكر منها كتاب " الصليب والهلال" ذلك الكتاب الذى اتخذ شعاراً له قول الشاعر حافظ إبراهيم " الشيخ والقسيس قسيسان

وأن شئت فقل هما شيخان

مما كان يعبر عن كيان الوطن الواحد والبناء والنسيج الذى يقوم على أساس المواطنة والمساواة بين جميع المصريين من أجل طرد الاحتلال .

أما الفضل الثانى لصفية زغلول فهو استمرارها فى النضال بعد نفى زوجها ومثابرتها على تأييد الحركة الوطنية .

أما الفضل الثالث فقد كان تأييدها لحركة تحرير النساء ومشاركة المرأة للنهضة الحديثة لمصر التى تسعى لجلاء الاستعمار .

يذكر حافظ محمود نقيب الصحفيين الأسبق أن الفضل يعود الى امرأة كانت تعمل عاملة تليفون حيث سمعت رجلاً يقول للآخر أن سعد باشا قد اعتقله الانجليز سراً دون أن يعلم أحد حتى الآن والصحف ممنوعة من النشر فابعث بالخبر الى كل لجاننا فى أحياء القاهرة وسائر الأقاليم .

وفجأة وجدت نفسها تشترك فى العمل الوطنى فقد كانت كلما التقت بإنسان تبلغه خبر اعتقال سعد .. وبعد انتشار الخبر بساعات كانت مصر كلها تموج بثورة ١٩١٩ التى أذهلت الانجليز .

وقد جاءت مشاركة المرأة مشاركة فعالة فى ثورة ١٩١٩ فاتحة لحصول المرأة على بعض المكاسب .

ففى عام ١٩٢١ استطاعت المرأة أن تنال حقها فى طلب الطلاق من الرجل فى حالة المعاملة السيئة .

لقد كانت أم المصريين نموذجاً للمرأة المصرية الأصيلة .. وفية لوطنها .. مخلصة لزوجها مؤمنة ببنات جنسها .. حبيبة الى الشعب .. عزيزة على المواطنات والمواطنين .. فحق على التاريخ أن يسجل رحلتها فى الحياة من أجل الوطن وفى سبيل عزة مصر وحريتها واستقلالها .

المصادر والمراجع

عبد العزيز بدر

مصر الحديثة قبل الاحتلال البريطانى وبعده

القاهرة ١٣٤٢ه-١٩٢٣م

احمد حافظ عوض

مع الرئيس فى المنفى

القاهرة ١٩٢٤

مذكرات قلينى فهمى باشا

الجزء الأول (الطبعة الرابعة)

مطبعة صادق بالمنيا ١٩٣٣

مصطفى أمين

من عشرة الى عشرين

المكتب المصرى الحديث -القاهرة ١٩٨١

محمود عزمى

خبايا سياسية

جريدة المصرى القاهرة ١٩٣٥

وليم سيدهم اليسوعى

لاهوت التحرير

رؤية عربية إسلامية مسيحية -القاهرة ٢٠٠٨

عزيز خانكى بك

نفحات تاريخية -القاهرة ١٩٤١

احمد طه محمد

المرأة المصرية بين الماضى والحاضر

القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

حسن محمد جوهر

المرأة عبر التاريخ

القاهرة الكتاب الذهبى نوفمبر ١٩٧٥

عبد الخالق لاشين

سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية

القاهرة ط١ ١٩٧٥

حافظ محمود

مذكرات منسية

القاهرة الكتاب الذهبى العدد ١٨٩ ابريل ١٩٧٢

طلعت اسماعيل رمضان

الإدارة المصرية فى فترة السيطرة البريطانية ١٨٨٢ – 1922

دار المعارف بمصر –القاهرة ١٩٧٧

محمد كامل سليم (سكرتير سعد زغلول الخاص)

أزمة الوفد الكبرى –سعد وعدلى

كتاب اليوم –القاهرة العدد ١٠٧ ربيع الأول ١٣٩٦هـ - مارس ١٩٧٦ م

أمال بيومى السبكى

سعد زغلول والكفاح السرى القاهرة ١٩٩٠

عبد العظيم رمضان

ثورة ١٩١٩ فى ضوء مذكرات سعد زغلول١٩٩٥

مصطفى النحاس جبر

مذكرات سعد زغلول ١٩٩٢

محمود عوض

سعد زغلول زعيم الأمة ١٩٩٥

محمود متولى

ثورات الشعب المصرى فى التاريخ الحديث

القاهرة ١٩٨١

عباس العقاد

سعد زغلول سيرة ١٩٣٥

أميل فهمى حنا شنودة

سعد ناظر للمعارف ١٩٣٦

مؤسسة الأهرام

مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة

٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩

محمد عبد الرحمن حسين

كفاح شعب ١٣٨٧هـ القاهرة ١٩٦٧

عبد العزيز رفاعى

الديمقراطية والأحزاب السياسية

فى مصر الحديثة والمعاصرة (١٨٧٥-١٩٥٢)

دار الشروق القاهرة ط١ أكتوبر ١٩٧٧

محمد مصطفى صفوت

الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه

دار الفكر العربى الأسكندرية مارس ١٩٥٢

المؤلف فى سطور

الإسم / أ . د . محمود متولى

- المهنة / أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة قناة السويس كلية التربية ببورسعيد .

❖ **المؤهلات : -**

- ليسانس أداب جامعة عين شمس
- ليسانس حقوق جامعة القاهرة
- ماجستير فى التاريخ الحديث والمعاصر بدرجة الإمتياز
- دكتوراة فى التاريخ الحديث والمعاصر بمرتبة الشرف الأولى
- دبلوم معهد الرأى العام والاعلام بمرتبة الشرف .
- دبلوم معهد السياحة العالى بتقدير جيد جداً .

❖ **الوظائف التى شغلها :**

- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة أسيوط .
- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنيا .
- وكيل كلية الآداب للدراسات العليا جامعة المنيا .
- عميد كلية التربية ببور سعيد جامعة قناة السويس لدورتين متتاليتين .
- عميد كلية التربية بصلالة –سلطنة عمان .
- أستاذ زائر بالجامعات العربية والأوربية .

❖ **الأنشطة العلمية :**

- حاصل على وسام التاريخ العربى من اتحاد المؤرخين العرب ببغداد .
- حاصل على وسام التاريخ العربى من اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
- مؤلف لأكثر من سبعين كتابا فى مجالات التاريخ والسياسة والعلاقات الدولية .

- عضو لجنة ترقيات الأساتذة منذ أكثر من ربع قرن .
- حاصل على درجة الاستاذية منذ ٢٧ عاما .
- عضو لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو .
- حاصل على جائزة جامعة السوربون حول رسالة الدكتوراة الخاصة به والتى عنوانها : - " الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها وأثرها على المجتمع المصرى " .

❖ **من أهم مؤلفاته :**

- مصر وقضايا الاغتيالات السياسية .
- الحياة الحزبية والنيابية فى مصر قبل عام ١٩٥٢ .
- غد بلا إرهاب .
- طغاة التاريخ .
- المذاهب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
- سلطان العدل والأمل .
- اسرائيل الحقيقة والمستقبل
- تاريخ أوربا المعاصرة .
- إتفاقية رودس بين العرب واسرائيل .
- حقوق الإنسان الأهداف والآمال .
- طوائف العالم الإسلامى .
- دور مصر فى تحرير الجزائر .
- مستقبل الأمة العربية والأطماع الأجنبية .
- الإخوان المسلمون والعمل السياسى .
- أندونيسيا والكفاح من أجل الإستقلال .
- هتلر والنازية والحرب العالمية الثانية .
- مأساة العصر فى تاريخ مصر .
- محمود فهمى النقراشى ودوره فى السياسة المصرية .

- مصر والحركة الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية .
- الأمم المتحدة والسلام العالمى.
- تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى خلال الحرب العالمية الثانية .
- الفيلسوف الاقتصادى الراحل .
- الوحدة العربية الواقع والمستقبل .
- إسرائيل والقنبلة الذرية .
- أفريقيا فى العلاقات الدولية .
- العالم العربى فى ظل ٦ أكتوبر .
- الإعلام وحرية المجتمع .
- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها بمصر فى القرن الـ ١٩ .
- فلسفة البحث العلمى .
- الإنسان فى محيط الزمان .

❖ **أنشطة إبداعية :**

- عضو مؤسس لسيمنار التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة عين شمس .
- مؤسس المنتدى الفكرى لجامعة قناة السويس .
- مؤسس دورية التاريخ والمستقبل الصادرة عن جامعة المنيا .
- مؤسس دورية قضايا تاريخية الصادرة عن كلية تربية بورسعيد
- الأمين العام المساعد لإتحاد المؤرخين العرب ببغداد .
- رئيس مجلس إدارة المركزالمصرى للأبحاث والدراسات .
- له أكثر من خمسمائة مقال منشورة فى الدوريات العلمية والصحف .
- شارك فى مناقشة أكثر من مائة رسالة فى الجامعات المصرية .
- أشرف على أكثر من سبعين رسالة ماجستير وثلاثين رسالة دكتوراة .
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- عضو نقابة المحامين .

وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

سلسلة رواد الحركة الوطنية المصرية
القراءة للجميع
٢٠٠٨
(٧)

صفية زغلول

أم المصريين

تقديم السفير / أيمن القفاص
رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

إشراف عام
د. أحمد أبو الحسن

إشراف فنى عام
أحمد سلام

اشراف فنى
إيمان شوشه

مراجعة ومتابعة
عزة فؤاد على
داليا سامى

إشراف طباعى
صبرى بدوى

الغلاف
مى رأفت

الليزر
ناهد عبد العال محمد
سامية كمال عبد الفتاح
امانى فؤاد محمد

رقم الإيداع
2008/22446

رقم الإيداع الدولى
977-234-214-6

الإخراج الفنى
علاء العيسوى



ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذي يحياه ويحيا فيه، حين يفتح أفقاً أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه المعلوم ، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ نفسه، ويقرأ الآخرين، فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة ، بان نوظف معارفنا لكل ما هو نافع ومفيد ، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن أن نمتلكه في الحياة ، ففي ظلها يزدهر عقل الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات ، وينتج الموارد والثروة ، ويصنع القوة ، وتتسع أمامه كل المجالات.

إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة . لذا، كانت وستظل دعوتى أن نقرأ للحاضر .. أن نقرأ للمستقبل .. أن نقرأ للحياة .

سوزان مبارك





www.sis.gov.eg